

أحمد أمين

من زعماء الإصلاح

من زعماء الإصلاح

أحمد أمين

فهرس

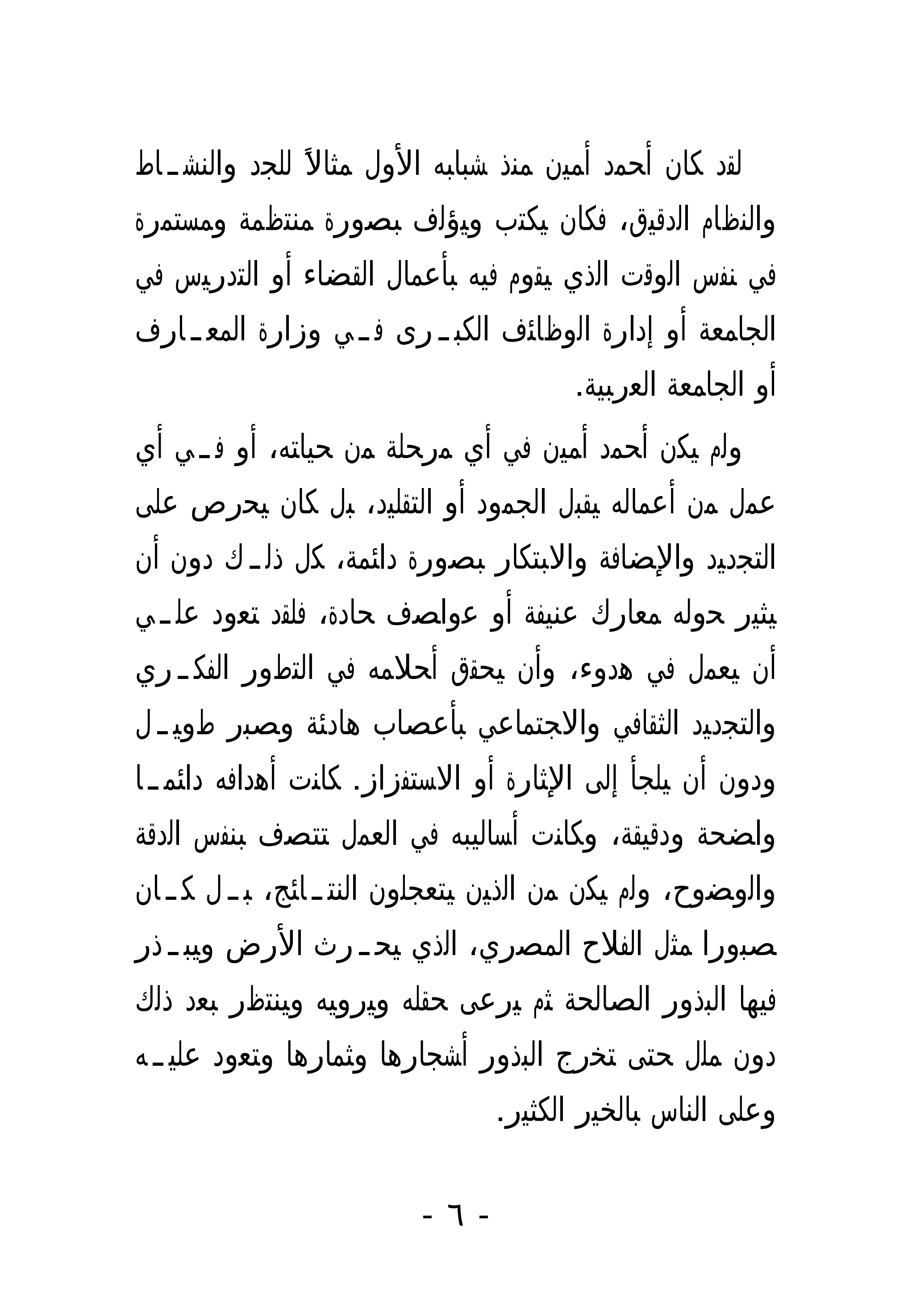
أحمد أمين وإنجازه الفكري
تقديم/ رجاء النقاش

أحمد أمين هو أحد الأدباء والمفكرين الكبار الذين ظهروا في مصر في النصف الأول من القرن العشرين، وتركوا وراءهم أثرا بارزا في العقل العربي الحديث، وقد ولد أحمد أمين إبراهيم – وهذا هو اسمه الكامل – في أول أكتوبر سنة ١٨٨٦ في حي "المنشية" بالقاهرة، وتوفي في ٣ مايو سنة ١٩٥٤ عن ستة وستين عاما، وتدرج أحمد أمين في تعليمه من "الكتاب" إلى "الأزهر" إلى مدرسة "القضاء الشرعي"، ونال شهادة القضاء الشرعي سنة ١٩١١ وكان في الخامسة والعشرين من عمره، وبسبب تفوقه اختاره عميد مدرسة القضاء الشرعي "عاطف بركات" مدرسا بها. وينتقل أحمد أمين بعد ذلك من التدريس في مدرسة القضاء الشرعي إلى "القضاء"، فيعمل "قاضيا" في "قويسنا" و"طوخ" ثم في "محكمة الأزبكية" الشرعية بالقاهرة، وفي سنة ١٩٢٦ يقترح عليه الدكتور طه حسين أن يعمل مدرسا بكلية الآداب في جامعة القاهرة، والتي كان اسمها في ذلك الحين جامعة فؤاد الأول،

فيوافق على اقتراح طه حسين وينتقل إلـى العمـل بكليـة الآداب، ومع الانتقال إلى كلية الآداب ينتقل مـن "العمامـة" و"الجبة" إلى "الطربوش" و"البدلة" وهو ما فعله زملاء له من قبله مثل طه حسين وزكي مبارك وأحمد حسن الزيات. فقـد كانوا جميعا "معممين" ثم أصبحوا "مطربشين" أي من لابسي الطربوش.

وأخذ أحمد أمين يرتقي في مناصبه العلمية الجامعية حتى أصبح عميدا لكلية الآداب سنة ١٩٣٩ وانتقل بعد ذلك إلـى وظائف أخرى متعددة منها "مـدير عـام الثقافـة" بـوزارة المعارف التي أصبح اسمها بعـد الثـورة "وزارة التربيـة والتعليم" كذلك تولى "إدارة الثقافة" بالجامعة العربيـة سـنة ١٩٤٧. وفي سنة ١٩٤٨ قدمت إليـه كليـة الآداب شـهادة "الدكتوراه الفخرية"، وظل يمارس نشاطه العلمي والعمل في ميدان الثقافة حتى وفاته سنة ١٩٥٤.

هذه هي الملامح العامة لحياة أحمد أمـين، ولكـن هـذه الملامح ليست كافية لتصوير نشـاطه الواسـع، وإنجازاتـه الفكرية الكبيرة المتعددة، وقدرته النادرة على الجمـع بـين العمل الثقافي الدائم في المؤسسات العلمية المختلفة.



لقد كان أحمد أمين منذ شبابه الأول مثالاً للجد والنشـاط والنظام الدقيق، فكان يكتب ويؤلف بصورة منتظمة ومستمرة في نفس الوقت الذي يقوم فيه بأعمال القضاء أو التدريس في الجامعة أو إدارة الوظائف الكبـرى فـي وزارة المعـارف أو الجامعة العربية.

ولم يكن أحمد أمين في أي مرحلة من حياته، أو فـي أي عمل من أعماله يقبل الجمود أو التقليد، بل كان يحرص على التجديد والإضافة والابتكار بصورة دائمة، كل ذلـك دون أن يثير حوله معارك عنيفة أو عواصف حادة، فلقد تعود علـى أن يعمل في هدوء، وأن يحقق أحلامه في التطور الفكـري والتجديد الثقافي والاجتماعي بأعصاب هادئة وصبر طويـل ودون أن يلجأ إلى الإثارة أو الاستفزاز. كانت أهدافه دائمـا واضحة ودقيقة، وكانت أساليبه في العمل تتصف بنفس الدقة والوضوح، ولم يكن من الذين يتعجلون النتـائج، بـل كـان صبورا مثل الفلاح المصري، الذي يحـرث الأرض ويبـذر فيها البذور الصالحة ثم يرعى حقله ويرويه وينتظر بعد ذلك دون ملل حتى تخرج البذور أشجارها وثمارها وتعود عليـه وعلى الناس بالخير الكثير.

ولا شك أن أبرز إنجازات أحمد أمين هي كتبـه الكثيـرة التي زادت على الأربعين كتابا، وفي مقدمتها كتاب "زعمـاء الإصلاح في العصر الحديث" الذي تقدم هيئة الكتاب فصولاً مختارة منه، وكان هدف أحمد أمين من تأليف هذا الكتاب هو أن يقدم للأجيال الجديدة نماذج حية من المفكرين والمصلحين المعاصرين في البلاد العربية والإسلامية، وهي نماذج تثيـر طموح الشباب إلى العمـل والاجتهـاد والثقافـة والمعرفـة والمساهمة في خدمة بلادهم على نطاق واسع، وكل واحد من هؤلاء المصلحين الذين يتحدث عنهم أحمد أمين يمثل قصـة رائعة من قصص الكفاح العلمي أو الاجتمـاعي أو الـديني، وهي قصة مليئة بالتضحية والأمانة والإخلاص، كل هـؤلاء المصلحين كانوا يشعرون بالقلق بسـبب تخلـف شـعوبهم وبلادهم، ويعملون بلا توقف من أجل نهضة هذه الشـعوب، ومن أجل تحريرها من كل القيود التي تعوق حركتها وتمنعها من أن تصبح مثل غيرها من الأمم الناهضة الحديثـة التـي تسعد بالعلم والتقدم والحرية والرخاء، وكانت القيـود التـي تعوق حركتها وتمنعها من أن تصبح مثل غيرها من الأمـم الناهضة الحديثة التي تسعد بالعلم والتقدم والحرية والرخـاء،

وكانت القيود التي يحاربها هـؤلاء المصـلحون معروفـة، ويمكن تلخيصها في الجهل ومـا يصـاحبه مـن استسـلام للخرافات واستبعاد للتفكير العلمي وعدم التعود على استخدام العقل في شئون الحياة المختلفة، ومن هـذه القيـود أيضـا الاستعمار الغربي الذي أنشب أظـافره فـي أجسـام الأمـم الشرقية، وامتص ما في بلادها خيرات، ومنعها من الاستفادة بذكاء أبنائها وثروات أرضها وعظمة تراثها القديم.

والحقيقة أن كتاب "زعماء الإصلاح في العصر الحـديث" هو رحلة ممتعة للفكر والنفس، مثيرة للطموح والهمة، باعثة للأمل الكبير في أن نجد بين أجيالنا الجديدة من يكررون دور هؤلاء الزعماء ويواصلون مسيرتهم بحثًا عن التقدم والسعادة والرخاء والنهوض لأنفسهم وشعوبهم.

ونعود إلى أحمد أمين نفسه لنقول إنه قدم للمكتبة العربيـة عددا من الكتب الأساسية التي ترقى إلى مستوى الموسوعات التي لا يستغنى عنها باحث أو قارئ يريـد أن يفهـم نفسـه وعصره وتاريخه، وعلى رأس هذه الموسوعات موسـوعة أحمد أمين الإسلامية بأجزائها المتعددة، وهي "فجر الإسلام" و"ضحى الإسلام" و"ظهر الإسلام" و"يوم الإسلام". وفي هذه

الموسوعة اهتم أحمد أمين بدراسة الجانب العقلي والفكـري في الحضارة الإسلامية، وهو جانب لم يلتفت إليه الكثيـرون من المفكرين قبله، فقد كان التـاريخ يقـوم علـى تسـجيل الأحداث السياسية ويهتم إلى الحكام والخلفاء والملـوك ومـا حدث لهم أو ما حدث بينهم، أمـا تـاريخ العقـل والتفكيـر والأسئلة الذهنية التي كانت تشغل الناس في كل عصر وتؤثر في حياتهم أشد التأثير، فقد كانت دائما على الهامش أو فـي الخلفية العامة للأحداث السياسة أو لتاريخ الحكام والسلاطين.

وجاء أحمد أمين في موسوعته الإسلامية الكبرى؛ ليؤرخ للعقل الإسلامي في مسيرته الطويلة من الرضا والقناعة إلى البحث والتنقيب والتساؤل، ومحاولة فهم المجهول الذي يحيط بالحياة والإنسان، وقد تميزت هذه الموسوعة الإسلامية التي كتبها أحمد أمين بالسهولة واليسر وغزارة المعلومات ودقـة تنظيمها وحسن عرضها، كما تميزت بحرصه الشديد على أن يوجه أنظار المجتمع الحديث إلى أسباب التخاف والتأخر كلما كانت هناك فرصة لإبراز ذلك وشـرحه وتحليلـه، ولـذلك جاءت موسوعة أحمد الإسلامية مرجعا ثمينًا حتى للبـاحثين

الغربيين الذين يدرسون الفكر العربي ويتابعون تطوره في مراحله المختلفة.

ومن كتب أحمد أمين الهامة أيضا كتابه "فيض الخاطر" وقد صدر في تسعة أجزاء، جمع فيها أهم ما كتبه من مقالات في الصحف والمجلات على مدى حياته كلها، وهذا الكتاب أيضا يمثل رحلة رائعة لمفكر كبير وأديب مبدع وعقل حر في تناوله لمشاكل الثقافة والحياة والمجتمع، فلا يكاد أحمد أمين في هذا الكتاب الكبير يترك مشكلة من المشاكل التي صادفت مجتمعنا الحديث إلا ويتعرض لها بالبحث والتحليل معتمدا على أسلوبه السهل الواضح وعلمه الغزير ورؤيته الصائبة الدقيقة للحلول المناسبة.

ولأحمد أمين أيضا كتاب هام هو "قاموس العادات والتقاليد المصرية" وفيه دراسة بالغة القيمة والعمق للألفاظ والعبارات والعادات والتقاليد، والأمثلة المعروفة في مصر منذ أقدم العصور إلى الآن، وهو كتاب ممتع ولا غنى عنه في التعرف على الينابيع والجذور التي تكونت منها الشخصية المصرية، مما يتيح لنا أن نعرف عيوبنا وفضائلنا، فنتخلص من العيوب ونتمسك بالفضائل.

ومن أمتع الكتب التي كتبها أحمد أمين بعنـوان "حيـاتي" وهو كتاب جميل ورائع يحكي فيه أحمد أمين قصـة نشـأته الشعبية الفقيرة وكفاحه في الثقافة والسياسة والحياة العامـة، ويكفي أن نقرأ بعض سطور هذا الكتاب في حـديث أحمـد أمين عن تأثير والده في تربيته حيث يقول:

"إن رأيت إفراطًا في جانب الجد، وتفريطًا معيبا في جانب المرح، أو رأيت صبرا على العمـل وجلـدا علـى تحمـل المشقات، فاعلم أن ذلك كله صدى لتعاليم البيت ومبادئه".

"وإن رأيت دينًا يسكن في أعماق قلبـي، وإيمانـًا بـا لا تزلزله الفلسفة، ولا تشكك فيـه مطالعـاتي فـي كتـب الملحدين، أو رأيتني أكثر من ذكر الموت والخـوف منـه، ورأيتني لا أتطلع إلى ما يعده النـاس مجـدا، ولا أحـاول الوصول إلى شهرة، وأذكر في أسعد الأوقات أن كـل ذلـك عرض زائل، أو رأيت بساطتي في العيش وعـدم احتفـائي بمأكل أو مشرب أو ملبس، وبساطتي في حـديثي وإلقـائي، وبساطتي في أسلوبي وعدم تعمدي الزينة والزخـرف فيـه، وكراهيتي الشديدة لكل تلاف وتصنع فـي أسـاليب الحيـاة، فمرجعه إلى تعاليم أبي وما شاهدته في بيتي".

هذا نموذج من أفكار أحمد أمـين الـواردة فـي كتابـه "حياتي"، وهـو كتـاب حافـل بالتجـارب المفيـدة والآراء الناضجة، وقراءته تساعد من يقرأ على مواجهة الكثير مـن مشكلات الحياة والتوصل إلى حل سـليم لهـا، ومـن بـين التجارب التي يتحدث عنها أحمد أمين في كتابه كيفية تعلمـه للغة الإنجليزية وهو كبير السن نسبيا، وما بذله في ذلك مـن جهد وعناء. ومنها حديث تفصيلي عن دوره الـوطني فـي ثورة ١٩١٩ حيث كان يكتب بعض منشوراتها، وكان يساعد زعيمها سعد زغلول في عدد من الأمور المهمة، كما كـان على صلة وثيقة بأحد زعماء الثورة وهو المجاهد الـوطني الحر عبد الرحمن فهمي الذي كان مسئولاً عن كل الأعمـال السرية في ثورة ١٩١٩.

على أن كتابات أحمد أمين الهامة لم تكن تسـتوعب كـل نشاطه وحيويته، فقد قدم أفكارا كثيرة أخرى وأنشأ مؤسسات عديدة كان على رأسها "لجنة التأليف والترجمة والنشر" التي أنشأها مع بعض زملائه سنة ١٩١٤ وكان رئيسا لهذه اللجنة وفاته سنة ١٩٥٤، وقامت هذه اللجنة بإصدار الكثيـر مـن الإصدارات الفكرية والثقافية والعلمية الهامـة فـي مجـال

التأليف والترجمة. كذلك أنشأ مجلة "الثقافة" الأدبية الأسبوعية سنة ١٩٣٩ وكان رئيسا لتحريرها وظلت هذه المجلة تصدر بصورة منتظمة حتى سنة ١٩٥٣، وكانت أهم مجلة ثقافيـة عربية بعد مجلة "الرسالة".

ومن أعماله الهامة أيضا أنه أنشأ سنة ١٩٤٥ ما عـرف باسم "الجامعة الشعبية" وهو ما تحول بعد ذلك إلـى الثقافـة الجماهيرية وهيئة قصور الثقافة الآن، وكان هدفه من إنشاء الجامعة الشعبية نشر الثقافة بين المـواطنين عـن طريـق المحاضرات والندوات والأفلام وغير ذلـك مـن الوسـائل الحديثة، وذلك حتى ألا تـرتبط الثقافـة العامـة بالمـدارس والجامعات وحدها.

وفي سنة ١٩٤٧ أنشأ معهد المخطوطات العربية التابعة لجامعة الدول العربية؛ وذلك بهدف إنقاذ المخطوطات العربية المهددة بالضياع والمبعثرة في شتى مكتبات العالم المختلفة.

لقد جاهد أحمد أمين طويلاً بقلمه وأعماله المتعددة، وكان واحدا من أعظم رواد النهضة العربية الحديثـة فـي الأدب والفكر والمجتمع، وكان إلى ذلك كله شخصية إنسانية تتميز بالأخلاق الرفيعة، والبعد عن الخصومات المفتعلة والصراع

من أجل المصالح الشخصية المحدودة، لقد كان مثالاً للعـالم المثقف صاحب العقل الذي يشبه المحيط في اتساعه لألـوان متنوعة من المعرفة، كما كان شخصية إنسانية حظيت مـن الأصدقاء والتلاميذ بكل الحب والاحترام والإعجاب.

ولعل أجمل ما نستطيع أن نختم به هذه المقدمة السـريعة هو مجموعة من الأقوال الموجزة تكشف عن فهم أحمد أمين للحياة والإنسان والمبادئ الصحيحة للعمل والسـلوك، ومـن هذه الأقوال: "أقصى درجات الشقاء حاكم يظلم رعيته وهـو يعلم ذلك، فيجمع الشعب على نفضه – مثلي الأعلى كمـال العقل وكمال الخلق كما أتصورهما – أفضل الحاكم العـادل على الغازي الفاتح، فعمر بن عبد العزيز أحب إلى من خالد بن الوليد – أحب الفضائل عندي هي الصـدق فـي القـول والعمل – أبرز صفاتي: الصراحة وأكبر عيـوبي: سـرعة الغضب".

هذه ملامح عامة لأحمد أمين في حياتي وكفاحه الثقافي والفكري والأدبي، وسوف تجد الكثير منها على صفحات هذا الكتاب وبين سطوره المختلفة.

رجاء النقاش

محمد بن عبد الوهاب

(١١١٥ – ١٢٠٦ هـ) – (١٧٠٣ – ١٧٩١م)

هو زعيم الفرقة التي تسمى الوهابيـة، وتعتنـق مذهبـه الحكومة الحاضرة في الحجاز.

نشأ في بلدة تسمى (العيينة) في نجد، وتعلم دروسه الأولى بها على رجال الدين من الحنابلة، وسافر إلى المدينـة ليـتم تعليمه، ثم طوف في كثير من بلاد العالم الإسـلامي، فأقـام نحو أربع سنين في البصرة، وخمس سنين في بغداد، وسـنة في كردستان، وسنتين في همذان، ثم رحل إلـى أصـفهان ودرس هناك فلسفة الإشراق والتصوف، ثم رحل إلى "قـم"، ثم عاد إلى بلده واعتكف عن الناس نحـو ثمانيـة أشـهر، ثم خرج عليهم بدعوته الجديدة.

وأهم مسألة شغلت ذهنه في درسه ورحلاته مسألة التوحيد التي هي عماد الإسلام، والتي تبلورت فـي "لا إلـه إلا ا " والتي تميز الإسلام بها عما عداه، والتي دعا إليها "محمد" ﷺ أصدق دعوة وأحرها، فلا أصنام ولا أوثان، ولا عبادة آبـاء

وأجداد، ولا أحبار[1] ولا نحو ذلك، ومن أجل هذا سمي هو وأتباعه أنفسهم "بالموحدين"، أما اسم الوهابية فهو اسم أطلقه عليهم خصومهم واستعمله الأوربيون، ثم جرى على الألسن.

وقد رأى أثناء إقامته في الحجاز ورحلاته إلى كثير من بلاد العالم الإسلامي؛ أن هذا التوحيد الذي هو مزية الإسلام الكبرى قد ضاع، ودخله كثير من الفساد.

فالتوحيد أساسه الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا العالم، والمسيطر عليه، وواضع قوانينه التي يسير عليها، والمشرع له، وليس في الخلق من يشاركه في خلقه ولا في حكمه، ولا من يعينه على تصريف أموره، لأنه تعالى ليس في حاجة إلى عون أحد مهما كان من المقربين إليه، هو الذي بيده الحكم وحده، وهو الذي بيده النفع والضر وحده لا شريك له، فمعنى لا إله إلا الله: ليس في الوجود ذو سلطة حقيقية تسير العالم وفقًا لما وضع من قوانين إلا هو، وليس في الوجود من يستحق العبادة والتعظيم إلا هو، وهذا هو محرر القرآن: ﴿ **قُلْ يا أَهلَ الْكِتَابِ تَعالَوا إِلَى كَلِمةٍ سواءٍ**

(١) أحبار جمع حبر. وهو رئيس الدين.

بيننَا وبينكُم ألا نَعبد إلا ا ولاَ نُشْرك بِهِ شَيئًا ولاَ يتخِذَ بعضنَا بعضا أَربابا من دون ا فَإِن تَولوا فَقُولُوا اشْهدوا بِأَنا مسلِمون ﴾.

إذا فما بال العالم الإسلامي اليوم يعدل عن هذا التوحيد المطلق الخالص من كل شائبة إلى أن يشرك مع ا كثيرا من خلقه؟ فهؤلاء الأولياء يحج إليهم، وتقدم لهم النذور، ويعتقد أنهم قادرون على النفع والضر. وهذه الأضرحة لا عدد لها، تقام في جميع أقطاره، يشد الناس إليها رحالهم، ويتمسحون بها، ويتذللون لها، ويطلبون منها جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم، ففي كل بلدة ولي أو أولياء، وفي كل بلدة ضريح أو أضرحة تشرك مع ا تعالى في تصريف الأمور ودفع الأذى وجلب الخير. كأن ا سلطان من سلاطين الدنيا الغاشمين، يتقرب إليه بذوي الجاه عنده وأهل الزلفى [١] لديه ويرجون في إفساد القوانين وإبطال العدل. أليس هذا كما كان يقول مشركو العرب: ﴿ **ما نَعبدهم إلا لِيقَربونَا إِلَى ا زلْفَى**﴾. وقولهم: ﴿ **هؤُلاَءِ شُفَعاؤُنَا عِنْد ا** ﴾؟!

(١) الزلفى. التقرب.

بل وا أسفاه؟ لم يكتف المسلمون بذلك بل أشركوا مع ا حتى النبات والجماد، فهؤلاء أهل بلدة "منفوخـة" باليمامـة يعتقدون في نخلة هناك لها قدرة عجيبة، من قصـدها مـن العوانس تزوجت لعامها، وهذا الغار في "الدرعية" يحج إليـه الناس للتبرك، وفي كل بلدة من البلاد الإسلامية مثل هـذا، ففي مصر شجرة الحنفي، ونعل الكلشني، وبوابة المتولي [1]، وفي كل قطر حجر وشجر. فكيف يخلص التوحيد مـع كـل هذه العقائد؟.

إنها تصد الناس عن ا الواحد، وتشـرك معـه غيـره، وتسيء إلى النفوس، وتجعلها ذليلة وضيعة مخرفة، وتجردها من فكرة التوحيد، وتفقدها التسامي.

---

(١) شجرة الحنفي: شجرة كانت في الحنفي يتبرك بها، ونعل الكلشني: نعل قديمة في تكية الكلشني، يزعمون أن الماء إذا شرب منها ينفع للتداوي من العشق، وبوابة المتولي مملوءة بالمسامير تعلق بها الشعور والخيوط ليذكر بالخير من علقها. وهكذا.

وأساس آخر يتصل بهذا التوحيد كان يفكر فيه "محمد بن عبد الوهاب"، وهو أن ا وحده هو مشرع العقائد، وهو وحده يحلل ويحرم، فليس كلام أحد حجة فن الدين إلا كلام ا وسيد المرسلين، فا يقول: ﴿ **أَم لَهم شُركَاء شَرَعوا لَهم من الدين ما لَم يأْذَن بِهِ ا ُ**  ﴾، فكلام المتكلمين في العقائد وكلام الفقهاء في التحليل والتحريم ليس حجة علينا، إنما أمامنا الكتاب والسنة، وكل مستوف أدوات الاجتهاد له الحق أن يجتهد، بل عليه أن يفعل ذلك ويستخرج من الأحكام – على حسب فهمه لنصوص الكتاب وما صح من السنة – ما يؤديه إليه اجتهاده، وإقفال باب الاجتهاد كان نكبة على المسلمين؛ إذ أضاع شخصيتهم وقوتهم على الفهم والحكم، وجعلهم جامدين مقلدين يبحثون وراء جملة في كتاب أو فتوى من مقلد مثلهم، حتى انحط شأنهم وتفرقوا أحزابا يلعن بعضهم بعضا، ولا منجاة من هذا الشر إلا بإبطال هذا كله، والرجوع إلى الدين في أصوله، والاستقاء من منبعه الأول.

وهكذا شغلت ذهنه فكرة التوحيد في العقيدة مجردة من كل شريك، وفكرة التوحيد في التشريع، فلا مصدر له إلا الكتاب والسنة.

هذا هو أساس دعوة محمد بن عبد الوهاب، وعلى هذا الأساس بنيت الجزئيات.

اقتفى في دعوته وتعاليمه عالما كبيرا، ظهر فـي القـرن السابع الهجري في عهد السلطان الناصر هو "ابـن تيميـة". وهو – مع أنه حنبلي – كان يقول بالاجتهـاد ولـو خـالف الحنابلة، وكان حر التفكير في حدود الكتاب وصحيح السنة، ذلق اللسان، قوي الحجة، شجاع القلـب، لا يخشـى أحـدا إلا ا ، ولا يعبأ بسجن مظلم، ولا تعذيب مرهـق، فهـاجم الفقهاء والمتصوفة، ودعا إلى عدم زيارة القبور والأضرحة وهدمها، وألف في ذلك الرسائل الكثيرة، ولم يعبأ إلا بما ورد في الكتاب والسنة، وخالف إمامه أحمد بن حنبـل حـين أداه اجتهاده إلى ذلك.

فيظهر أن "محمد بن عبد الوهاب" عرف ابن تيمية من طريق دراسته الحنبلية، فأعجب به، وعكف على كتبه ورسائله يكتبها ويدرسها. وفي المتحف البريطاني بعض

رسائل لابن تيمية مكتوبة بخط ابن عبد الوهاب، فكان ابن تيمية إمامه ومرشده وباعث تفكيره، والموحي إليه بالاجتهاد والدعوة إلى الإصلاح.

دعا مثله إلى رد البدع والتوجه بالعبادة والدعاء إلـى ا وحده، لا إلى المشايخ والأولياء والأضـرحة، ولا بواسـطة توسل ولا شفاعة، وزيارة القبور إن كانت فللعظة والاعتبار، لا للتوسل والاستشفاع، فهم لا يملكـون شـيئًا بجانـب ا وقوانينه الثابتة التي لا تتخلف والتي نظـم ا بهـا كونـه، فالذبح للقبور والنذور لها والاستغاثة بها والسـجود عنـدها شرك لا يرضاه ا ، وهو هدم للتوحيد – الـذي جـاء بـه الإسلام – من أساسه، ومثل ذلك تجصيص القبور [1] وبناية الأضرحة وتشييد الأبنية عليها، وكسوتها بالحرير المـذهب وما إلى ذلك، فكل هذه لا يعرفها الإسلام.

فكانت دعوة ابن عبد الوهاب حربا على كل ما ابتدع بعد الإسلام الأول من عادات وتقاليد، فلا اجتماع لقراءة مولـد، ولا احتفاء بزيارة قبور، ولا خروج للنساء وراء الجنـازة،

---

(١) طلاؤها بالجص.

ولا إقامة أذكار يغنى فيها ويرقص، ولا "محمل" يتبرك بـه ويتمسح، ويحتفل به هذا الاحتفـال الضـخم، وهـو لـيس إلا أعوادا خشبية لا تضر ولا تنفع.

كل هذا مخالف للإسلام الصحيح يجب أن يزال، ويجب أن نعود إلى الإسلام في بساطته الأولى، وطهارته ونقائه، ووحدانيته واتصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك. فلا إله إلا ا معناها كل ذلك. والكتب المملوءة بالتوسلات كتب ضارة بالعقائد، كدلائل الخيرات، وما في البردة من مثل قوله:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به … سواك عند حدوث الحادث العمم[1]

وقوله:

إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي … فضلا وإلا فقل يا زلة القدم

وقوله:

فإن من جودك الدنيا وضرتها … ومن علومك علم اللوح والقلم [2]

---

(١) العمم: الشامل.

(٢) ضرتها: أي الآخرة.

ونحو ذلك، أقوال فاسدة كاذبة. فلا التجاء إلا إلى ا ، ولا اعتماد في الدنيا والآخرة إلا عليه.

لقد كان محمد بن عبد الوهاب ومن نحا نحوه يـرون أن ضعف المسلمين اليوم وسقوط نفسيتهم لـيس لـه سـبب إلا العقيدة، فقد كانت العقيدة الإسلامية في أول عهـدها صـافية نقية من أي شرك، وكانت لا إله إلا ا معناها السمو بالنفس من الأحجار والأوثان وعبادة العظماء وعدم الخـوف مـن الموت في سبيل الحق، وعدم الخوف من اسـتنكار المنكـر والأمر بالمعروف مهما تبع ذلك من عذاب، ولا قيمة للحيـاة إلا إذا بذلت في رفع لواء الحق ودفع الظلم، وهذا هو الفرق الوحيد بين العرب في الجاهلية والعرب في الإسلام، وبهـذه العقيدة وحدها غزوا وفتحوا وحكموا. ثم ماذا؟

ثم لم يتغير شيء إلا في العقيدة، فتدنوا من سمو التوحيـد إلى حضيض الشرك، فتعددت آلهتهم مـن حجـر وشـجر وأعواد خشب وقبور أولياء، وركنوا إلى ذلك فـي حيـاتهم العامة، فالزرع ينجح لرضا ولي ويخيب لغضـبه، والبقـرة تحيا إذا نذرت للسيد البدوي أو مثله، وتموت إذا لـم تنـذر، وهكذا في الأمراض والعلل والغنى والفقر! كلها لا ترجع إلى

قوانين ا   الطبيعية، وإنمـا ترجـع إلـى غضـب الأرواح ورضاها، ومثل هذه النفوس الضعيفة التـي تـذل للحجـر والشجر والأرواح، لا تستطيع أن تقف أمام الولاة والحكـام الظالمين تأمرهم بمعروف أو تنهاهم عن منكر، فذلوا للحكام والأغنياء كما ذلوا للخشب والأحجار. وما زال كل قرن يمر تزداد معه الآلهة عددا وتزداد النفوس ذلة، حتـى وصـلت الحال بالأمة الإسلامية إلى فقد سيادتها، وانهيار عزتها. ولا يصلح آخر الإسلام إلا بما يصلح به أوله، فلا بد من العودة إلى الحياة الإسلامية الأولى حيث التوحيد الصحيح والعـزة الحقة، ولا بد من هدم هذه البدع والخرافات باللين إن نجـح، وبالقوة إن لم ينجح، وا   المستعان.

لم ينظر محمد بن عبد الوهاب إلى المدينة الحديثة وموقف المسلمين منها، ولم يتجه في إصلاحه إلى الحياة المادية كما فعل معاصره محمد علي باشا، وإنما اتجه إلى العقيدة وحدها والروح وحدها، فعنده أن العقيدة والروح هما الأساس وهما القلب إن صلحا صلح كل شيء، وإن فسدا فسد كل شيء، وطبيعي أن يكون هذا هو الفرق بين رئيس الدين في نجد ورئيس الحكم في مصر.

أما بعد.. فإن التوحيد الصحيح المطلق المجرد عن شائبة كل تجسيم، المنزه عن كل تشخيص، الذي يصل العبد بربـه من غير وساطة ولا وسيلة، مطلـب عسـير لا يسـتطيعه إلا الخاصة أو خاصة الخاصة. أما من عـداهم فيشـعرون بالتوحيد لحظات ثم سرعان ما يتدهورون، ويشوب عقيدتهم نوع من التشخيص، وأسلوب من التجسيم على نحو ما، ثـم يتخذون من الصالحين وسائل وزلفـى – كـان ذلـك فـي الجاهلية، وكان ذلك في الإسلام بعيد البعثة إلى الآن.

فالمؤرخون يروون أن أهل الطائف لما أسلموا كان لهم بنية على اللات [1]، فأمر النبي بهدمها، فطلبوا منه أن يترك هدمها شهرا لئلا يروعوا نساءهم وصبيانهم حتى يدخلوهم في الدين، فأبى ذلك عليهم وأرسل معهم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان بن حرب وأمرهم بهدمها.

وفي الحديث أن العرب كانت لهم في الجاهلية شجرة تسمى "ذات أنواط" كانوا يعلقون بها سلاحهم ويعكفون حولها

(١) بنية: كعبة. اللات: صنم.

ويعظمونها، فسأل بعض المسلمين رسول ا يجعل لهم كذلك "ذات أنواط" فنهاهم عن ذلك.

ولما جاء عمر شعر أن بعض النـاس أخـذ يحـن إلـى العادات الجاهلية القديمة، فرآهم يأتون الشجرة التـي بـايع رسول ا ﷺ تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها، فبلغ ذلك عمر فأمر بها فقطعت.

ولما رأى عمر كعب الأحبار يخلع نعله ويلمس برجليه الصخرة عند فتح بيت المقدس، قال له: "ضاهيت وا اليهود يا كعب".

وهكذا ما لبث بعض الناس حتى تراجـع عـن التوحيـد المطلق الذي جاء به الإسلام؛ لأن التحرر من المادة بأشكالها جميعا، والإفلات من قيود الحس، والتسامي إلـى ا فـوق المادة وفوق الحس وفوق التشخيص، يتطلب منزلة رفيعة من السمو العقلي تعجز عنه الجماهير.

وقال النبي ﷺ: "إن من كان من قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك".

ثم سرعان ما اتخذ المسلمون قبـور الصـالحين وغيـر الصالحين مساجد، ولم يكن الصحابة الأولون يشدون الرجال

إلى المشاهد، ثم كان ذلك، وهكذا كلما مضى زمن كثرت فيه أصناف التعظيم للقبور والأضرحة وكثيـر مـن الأشـجار والجماد.

وظهر الدعاة والمصلحون على توالي العصور يحـاولون أن يردوا الناس عن هذا ويرجعوهما إلى التوحيـد وحـده، وكلما دعا داع إلى ذلك عذب وأهين ورمي بالكفر والإلحـاد كما فعل بابن تيمية، فقد ألف الرسائل في هـذا الموضـوع، وانتقد حال المسلمين في استغاثتهم بالقبور ورحـيلهم إليهـا، وطوافهم بالصخرة في بيت المقدس، ورحيلهم إلـى مشـهد الخليل ومشاهد عسقلان، وتعظـيمهم حتـى بعـض آثـار النصرانية فعذب وسجن، وأتى بعده بقرون محمد بـن عبـد الوهاب هذا، فدعا مثل هذه الدعوة فرمى بالكفر. وأخيرا جاء الشيخ محمد عبده فدعا إلى العدول عن التوسـل والشـفاعة والزيارة للقبور، وملأ دروسه في التفسير بمثل هذه الدعوة، فلقي من أهل زمنه ما لم يغب عن أذهاننا بعد.

هذا هو جوهر الدعوة التي دعا بهـا محمـد بـن عبـد الوهاب، فماذا كان شأنها ومصيرها؟

- ٢ -

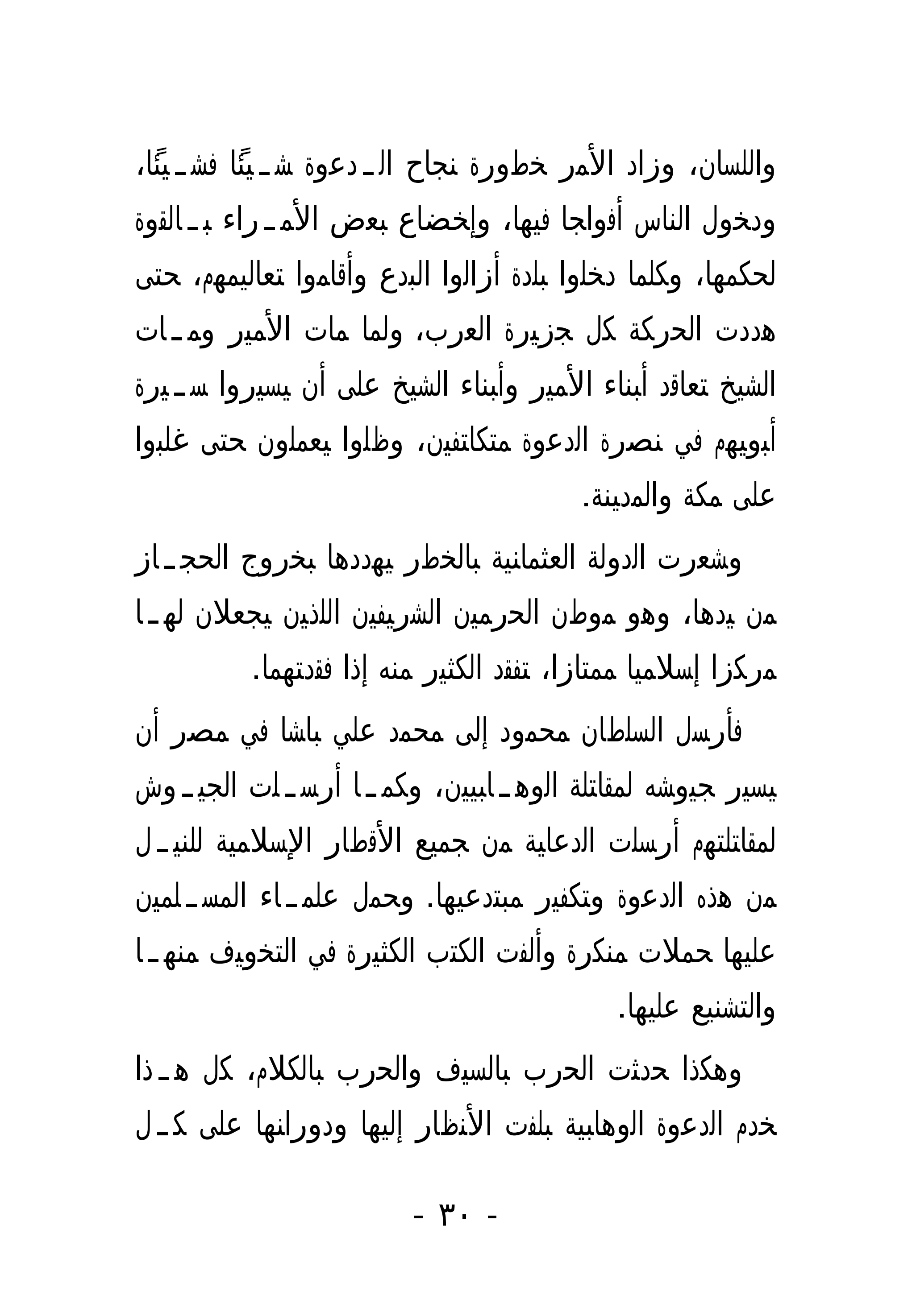
كانت جزيرة العرب عندما دعا محمد بن عبد الوهاب دعوته – التي شرحناها فيما مضى – أشبه شيء بحالتها في الجاهلية، كل قبيلة تسكن موضعا يرأسها أمير منها. هذا أمير في الإحساء، وهذا أمير في العسير، وهؤلاء أمراء في نجد إلخ، ولا علاقة بين الأمير والأمير إلا علاقة الخصومة غالبا. ثم تتوزعها – أيضا – الخصومة بين البدو والحضر، فمن قدر من البدو على خطف شيء من الحضر فعل، ومن قدر من الحضر على التنكيل ببدو فعل، والطرق غير مأمونة، والسلب والنهب على أشدهما، وسلطة الخلافة في الأستانة تكاد تكون سلطة اسمية، ومظهرها تعيين الأشراف في مكة وإمدادهم ببعض الجنود وكفى.

لقد بدأ "محمد بن عبد الوهاب" يدعو دعوته – التي ذكرناها – في لين ورفق بين قومه، ثم أخذ يرسل الدعوة لأمراء الحجاز والعلماء والأقطار الأخرى، حاثًا لهم على استنهاض الهمم في مكافحة البدع والرجوع إلى الإسلام الصحيح.

كم من المصلحين دعوا مثل هذه الدعوة، ولكنها مرت بسلام، وإن شابها شيء فسجن الداعي أو التشهير به ورميه بالكفر أو الزندقة، ثم ينتهي الأمر ويعود الناس سيرتهم الأولى، بل نرى من قام بمثل هذه الدعوة – فعلاً – في المغرب كالشيخ أبي العباس التيجاني، فقد أمر بترك البدع ونهى عن زيارة القبور، وكثرت أتباعه حتى بلغت مئات الألوف، ولكن لم يلفت الناس والحكام أمره كما لفتهم محمد بن عبد الوهاب، وكذلك الشيخ محمد عبده دعا مثل هذه الدعوة، فأجابه بعضهم، وأنكر عليهم بعضهم، ثم أسدل الستار. فما السبب في نجاح الدعوة الوهابية دون الأخرى؟

السبب في هذا ما أحاط بالدعوة الوهابية من ظروف لم تتهيئ لغيرها.

فقد اضطهد في بلده العيينة، واضطر أن يخرج منها إلى الدرعية مقر آل سعود، وهناك عرض دعوته على أميرها محمد بن سعود فقبلها، وتعاهدا على الدفاع عن الدين الصحيح ومحاربة البدع، ونشر الدعوة في جميع جزيرة العرب باللسان عند من يقبلها، وبالسيف عند من لم يقبلها، وإذ ذاك دخلت الدعوة في دور خطير، وهو اجتماع السيف



واللسان، وزاد الأمر خطورة نجاح الـدعوة شـيئًا فشـيئًا، ودخول الناس أفواجا فيها، وإخضاع بعض الأمـراء بـالقوة لحكمها، وكلما دخلوا بلدة أزالوا البدع وأقاموا تعاليمهم، حتى هددت الحركة كل جزيرة العرب، ولما مات الأمير ومـات الشيخ تعاقد أبناء الأمير وأبناء الشيخ على أن يسيروا سـيرة أبويهم في نصرة الدعوة متكاتفين، وظلوا يعملون حتى غلبوا على مكة والمدينة.

وشعرت الدولة العثمانية بالخطر يهددها بخروج الحجـاز من يدها، وهو موطن الحرمين الشريفين اللذين يجعلان لهـا مركزا إسلاميا ممتازا، تفقد الكثير منه إذا فقدتهما.

فأرسل السلطان محمود إلى محمد علي باشا في مصر أن يسير جيوشه لمقاتلة الوهـابيين، وكمـا أرسـلت الجيـوش لمقاتلتهم أرسلت الدعاية من جميع الأقطار الإسلامية للنيـل من هذه الدعوة وتكفير مبتدعيها. وحمل علمـاء المسـلمين عليها حملات منكرة وألفت الكتب الكثيرة في التخويف منهـا والتشنيع عليها.

وهكذا حدثت الحرب بالسيف والحرب بالكلام، كل هـذا خدم الدعوة الوهابية بلفت الأنظار إليها ودورانها على كـل

لسان، وزاد في شأنها أن الوهابيين انتصروا على حملة محمد علي باشا الأولى بقيادة الأمير طوسون.

ثم أعد محمد علي باشا العدة القوية الكبيرة، وسار بنفسه وحاربهم بخير سلاحه، فانتصر عليهم، وأتم النصر ابنه إبراهيم باشا، وانهزمت قوة الوهابيين.

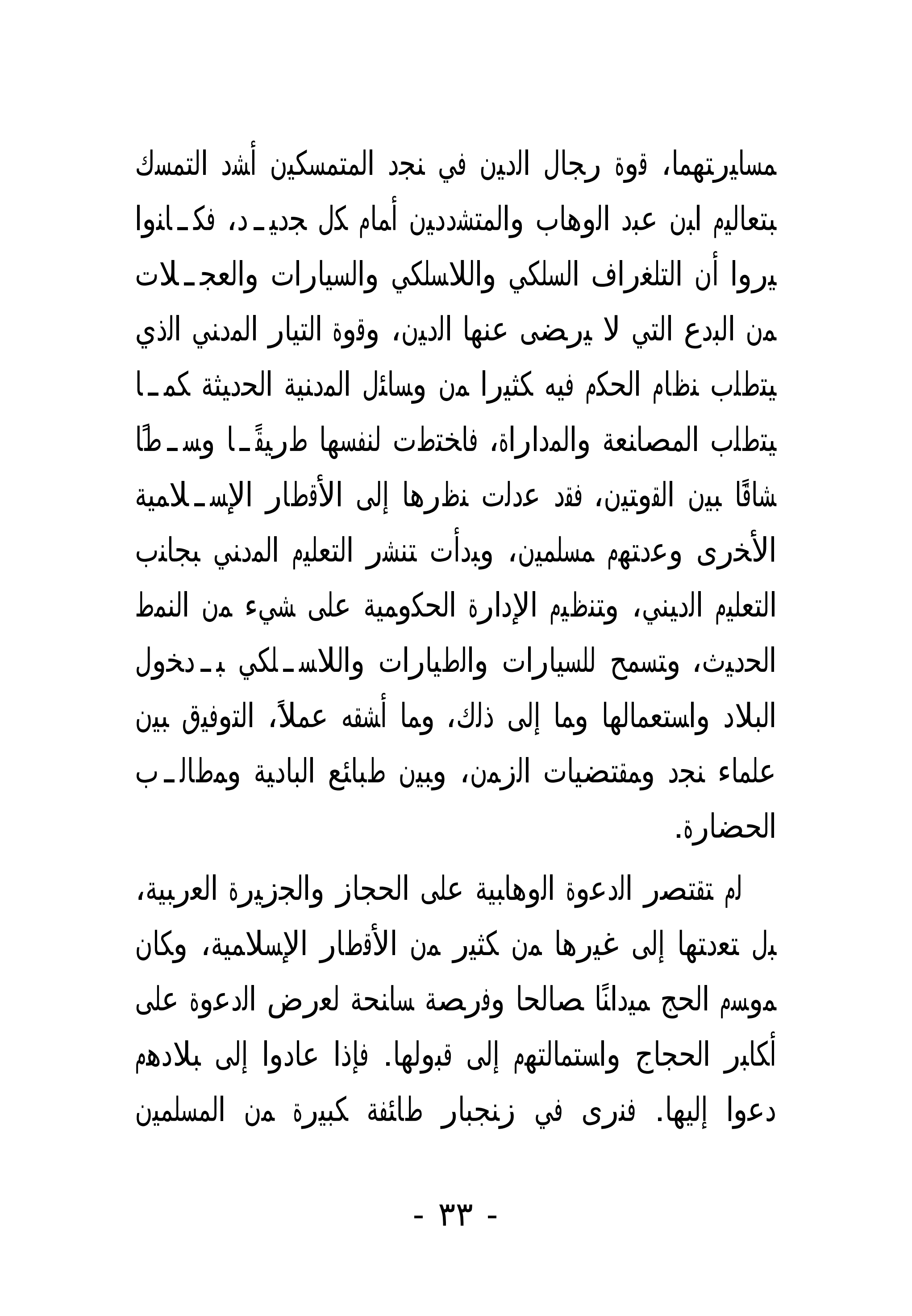
ولكن بقيت الدعوة إلى أن هيئ لها في العهد الحاضر المملكة السعودية الحاضرة في تاريخ طويل لا يعنينا هنا، وإنما يهمنا الدعوة وما تم لها.

إن الدعاية التي أحكمت ضدها، وتعلق الناس بالدولة العثمانية، وميلهم الشديد أن تظل بلادها وحدة لا ينفصل عنها جزء، جعلت عامة المسلمين في أقطار العالم الإسلامي يفرحون بهزيمة الوهابية. ولو لم يفهموا جوهر دعوتها، وشيء آخر كان كبير الأثر في تنفير عامة المسلمين من هذه الحركة، وهو أنها حيث استولت على بلد نفذت تعاليمها بالقوة ولم تنتظرها حتى يؤمن الناس بدعوتها، فلما دخلوا مكة هدموا كثير من القباب الأثرية، كقبة السيدة خديجة، وقبة مولد النبي ﷺ، ومولد أبي بكر وعلي، ولما دخلوا المدينة رفعوا بعض الحلي والزينة التي كانت على قبر

الرسول، فهذه كلها أثارت غضب كثير من الناس وجرحـت عواطفهم، فمنهم من حزن على ضياع معالم التاريخ، ومنهم من حزن على الفن الإسلامي، ومنهم من حزن لأن مقبـرة الرسول ﷺ وفخامتها مظهر للعاطفة الإسلامية وقوة الدولـة، وهكذا اختلفت الأسباب واشتركوا في الغضب. والوهابيون لم يعبثوا إلا بإزالة البدع والرجوع بالدين إلى أصله.

وقد اهتموا بالناحية الدينية وتقوية العقيدة وبالناحية الخلقية مما صورها الدين، ولذلك حيث سادوا قلت السرقة والفجور وشرب الخمور وأمن الطريق وما إلى ذلك، ولكنهم لم يمسوا الحياة العقلية، ولم يعملوا على ترقيتها إلا في دائرة التعلـيم الديني. ولم ينظروا إلى مشاكل المدنية الحاضرة ومطالبهـا. وكان كثير منهم يرون أنا ما عـدا قطـرهم مـن الأقطـار الإسلامية التي تنتشر فيها البدع ليست ممالك إسـلامية، وأن دارهم دار جهاد، فلما تولت حكومة ابن سعود الحاضرة كان لا بد أن تواجه هذه الظروف، وتقف أمام منطق الحـوادث. ورأت نفسها أمام قوتين قـويتين لا معـدى [1] لهـا عـن

(١) لا معدى: لابد.



مسايرتهما، قوة رجال الدين في نجد المتمسكين أشد التمسك بتعاليم ابن عبد الوهاب والمتشددين أمام كل جديد، فكانوا يروا أن التلغراف السلكي واللاسلكي والسيارات والعجلات من البدع التي لا يرضى عنها الدين، وقوة التيار المدني الذي يتطلب نظام الحكم فيه كثيرا من وسائل المدنية الحديثة كما يتطلب المصانعة والمداراة، فاختطت لنفسها طريقًا وسطًا شاقًا بين القوتين، فقد عدلت نظرها إلى الأقطار الإسلامية الأخرى وعدتهم مسلمين، وبدأت تنشر التعليم المدني بجانب التعليم الديني، وتنظيم الإدارة الحكومية على شيء من النمط الحديث، وتسمح للسيارات والطيارات واللاسلكي بدخول البلاد واستعمالها وما إلى ذلك، وما أشقه عملاً، التوفيق بين علماء نجد ومقتضيات الزمن، وبين طبائع البادية ومطالب الحضارة.

لم تقتصر الدعوة الوهابية على الحجاز والجزيرة العربية، بل تعدتها إلى غيرها من كثير من الأقطار الإسلامية، وكان موسم الحج ميدانًا صالحا وفرصة سانحة لعرض الدعوة على أكابر الحجاج واستمالتهم إلى قبولها. فإذا عادوا إلى بلادهم دعوا إليها. فنرى في زنجبار طائفة كبيرة من المسلمين

يعتنقون هذا المذهب، ويدعون إلى ترك البدع، وعدم التقرب بالأولياء.

وقام في الهند زعيم وهابي اسمه السيد أحمد. حـج سـنة ١٨٢٢م. وهناك آمن بالمذهب الوهابي، وعاد إلـى بـلاده، فنشر هذه الدعوة في بنجاب وأنشأ بها شبه دولـة وهابيـة، وأخذ سلطانها يمتد حتى هدد شمال الهند، وأقام حربا عوانًا[1] على البدع والخرافات، وهاجم الوعاظ ورجال الدين هنـاك. وأعلن الجهاد ضد من لم يعتنق مذهبه ويقبـل دعوتـه، وأن الهند دار حرب، ولقيت الحكومة الإنجليزية متاعـب كثيـرة شاقة من أتباعه، حتى استطاعت إخضاعهم.

وكذلك حضر الإمام السنوسي مكة حاجا، وسمع الـدعوة الوهابية واعتنقها، وعاد إلى الجزائر يبشر بهـا، ويؤسـس طريقته الخاصة في بلاد المغرب كما سيأتي بيانه.

وفي اليمن ظهر أعلام علمائه، وإمام أئمته وهـو الإمـام الشوكاني المولود سنة ١١٧٢هـ. فسار على هـذا الـنهج نفسه، وإن لم يتلقه عن ابن عبد الوهاب، وألف كتابه القـيم

---

(١) عوانا منكرة، مشتدة.

"نيل الأوطار" شارحا فيه كتاب ابن تيمية "منتقى الأخبـار"، عارضا الأحاديث النبوية، مجتهدا في فهمها، وفي اسـتنباط الأحكام الشرعية منها ولو خالف المذاهب الأربعـة كلهـا، وحارب التقليد ودعا إلى الاجتهاد، وثارت من أجـل ذلـك حرب كلامية شعواء [1] بينه وبين علماء زمنه، كان أشـدها في صنعاء. وألف في ذلك رسالة سماها "القول المفيـد فـي حكم التقليد"، ودعا في قوة إلى عدم زيارة القبور والتوسـل بها، فقال في نيل الأوطار [2]: "وكم سرى عن تشييد أبنيـة القبور وتحسينها من مفاسد يبكي لها الإسلام، (منها) اعتقـاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام، وعظم ذلك فظنـوا أنهـا قادرة على جلب النفع ودفع الضرر، فجعلوها مقصدا لطلـب قضاء الحوائج وملجأ لنجح المطالب، وسألوا منها ما يسـأل العباد من ربهم، وشدوا إليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا. وبالجملة فإنهم لم يدعوا شيئًا ممـا كانـت الجاهليـة تفعلـه بالأصنام إلا فعلوه، فإنا وإنا إليه راجعون.

(١) شعراء: منتشرة ممتدة.

(٢) جزء على ص١٠٤ من الطبعة الأميرية.

"ومع هذا النكر الشنيع والكفر الفظيع، لا نجد من يغضب ويغار حمية للدين الحنيف، لا عالما ولا متعلما، ولا أميرا ولا وزيرا ولا ملكًا، وقد توارد إلينا من الأخبار ما لا يشـك معه أن كثيرا من هؤلاء القبوريين أو أكثـرهم إذا توجهـت عليه يمين من قبل خصمه حلف با فاجرا، فإذا قيل له بعـد ذلك: احلف بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني تلعثم وتلكأ، وأبى واعترف بالحق، وهذا من أبين الأدلة الدالة على شركهم، قد بلغ فوق شرك من قال إنه تعالى ثاني اثنين وثالث ثلاثة.

"فيا علماء الدين، ويا ملوك المسلمين، أي رزء للإسـلام أشد من الكفر، وأي بلاء لهذا الدين أضر عليه مـن عبـادة غير ا ، وأي مصيبة يصاب بهـا المسـلمون تعـدل هـذه المصيبة، وأي منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك المبين؟".

وقد مات الإمام الشوكاني سنة ١٢٥٠ بعد أن أبلى في هذا بلاء عظيما، وخلف تلاميذ كثيرين يدينون برأيه.

وفي مصر شب الشيخ محمد عبده فرأى تعاليم ابن عبـد الوهاب تملأ الجو، فرجع إلى هذه التعاليم في أصولها مـن عهد الرسول إلى عهد ابن تيمية، إلى عهد ابن عبد الوهاب،

وكان أكبر أمله أن يقوم في حياته للمسلمين بعمـل صـالح، فأداه اجتهاده وبحثه إلى هذين الأساسين اللذين بني عليهمـا محمد بن عبد الوهاب تعاليمه، وهما: ١- محاربة البدع وما دخل على العقيدة الإسلامية من فساد بإشراك الأولياء والقبور والأضرحة مع ا تعالى، و٢- فتح باب الاجتهاد الذي أغلقه ضعاف العقول من المقلدين، وجرد نفسـه لخدمـة هـذين الغرضين، ولكنه امتاز بميزة كبرى عمن عداه، وهي ثقافته الواسعة الدينية والدنيوية، ومعرفته بشئون الـدنيا وأسسـها وتياراتها، وذلك بتربيته الدينية الأولى المستمرة، ورحلاتـه إلى أوربا يخالط علماءها وفلاسفتها وساستها. فلما تعـرض لمثل ما تعرض له ابن عبد الوهاب فلسف الدعوة وركزهـا على أسس نفسية واجتماعية، كما شارك في تركيزها علـى الأسس الدينية، ففي دروسه في التفسير التي كان يلقيها فـي الرواق العباسي بالأزهر، كان ينتهز كل إشارة لآية ولو من بعيد تندد بالشرك فيفيض في الحملة على عبادة الصـالحين، وزيارة القبور والشفاعة والتوسل وما إلـى ذلـك. فيطيـل الوقوف – مثلاً – عند قوله تعالى: ﴿ **ومِن الناس من يتخِـذُ مِن دون ا ِ أَنْداداً يحِبونَهم كَحب ا ِ والَذِين آمنُوا أَشَد حبا**

ﮋ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة ﮋ جميعا وأن ا ﹶ شديد العذاب  فيقسم الشيخ الأنداد إلـى قسـمين: هؤلاء الشفعاء الذين اتخذتهم الناس وسيلة للقـرب مـن ا يستقصونهم في الحوائج، وهؤلاء الذين يقلدون في الدين يتخذ قولهم شرعا من غير حجة ولا برهـان. وتظهـر فلسـفته للمذهب في بيان الأضرار النفسية من هـذه العقائـد، فهـي تورث الذل وتخضع الناس للحكام الظالمين، تحط النفوس إلى الدرك الأسفل، ثم هي تضر اجتماعيا باعتماد النـاس علـى هؤلاء الأولياء بتركهم القوانين الطبيعية التي جعلها ا أسبابا لا بد منها لحصول المسبب، فالزراعة إنما تـنجح بـالحرث والتسميد والبذر والسقي، لا بالاستغاثة بولي، والحرب إنمـا تكسب باتخاذ سلاح مجهز على آخر طراز كسلاح العـدو، وإعداد العدة الكاملة كما يفعل العدو، لا بالاسـتعانة بأهـل القبور، وفضيلة المسلم أن يستعين بعد ذلك كله با وحـده، يطلب منه أن يثبت قلبه، ويلهمه التوفيق. وهكذا كان يفـيض في هذين الأساسين مفندا آراء من يقول بالتوسل والشـفاعة والتقليد.

وينتهز فرصة وجود جماعة من العلماء عنده في يوم مولد النبي، ودعوته للعشاء عند أحد المحتفلين، فيبين لهم أن هذه الموالد كلها منكرات، ويتمنى لو أنفق ما يصرف في الموالد على تعليم الفقراء، ويناظرهم في ذلك مناظرة تنتهي بانصراف العلماء إلى العشاء في المولد، وامتناع الشيخ وحده.

ويضع الشيخ تفسيرا لجزء "عم" للناشئة فيلتمس كل وسيلة للحملة على كل ما يشوب التوحيد من شرك بعبادة المشايخ والقبور والأضرحة والتخريف، راجيا أن ينشأ الشباب نشأة دينية صحيحة خيرا مما عليه آباؤهم – وأعانه في هذه السبيل تلميذه وصديقه السيد محمد رشيد رضا في مجلة المنار، فقد ملأها كذلك بمثل هذه الدعوة ومثل هذه الحجج، يسمع بها المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية.

وفي تركيا قامت الحكومة التركية الكمالية بمحاربة هذه البدع والخرافات، فأغلقت التكايا وكانت عش التدجيل، وطاردت المشايخ، واضطهدت المهرجين، ولكن الفرق بين هذه الحركة وما قبلها أن كل الحركات السابقة كانت مؤسسة على الدين والإصلاح الديني، والرجوع إلى الأصول الدينية،

أما هذه الحركة فمؤسسة على العقل المطلق، وفكرة الإصلاح الاجتماعي من غير أن يكون الـدافع إليهـا الرغبـة فـي الإصلاح الديني.

وأخيرا وقد مضى على هذه الدعوة الإصلاحية من عهد محمد بن عبد الوهاب إلى الآن عشرات السنين، واشترك في تنظيم الغزوة عشرات من الأبطال، فماذا كانت النتيجة؟

ظلت عامة المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية – كمـا هم – من حيث الالتجاء في قضاء الحـوائج إلـى المشـايخ والقبور والأضرحة، وظلت على عادتها في الاحتفال بالموالد ونحوها وإن قل بهاؤها ورونقها، وإنما تأثر بهـذه الـدعوة الخاصة أو خاصة الخاصة. كما تأثر بهـا ناشـئة الشـباب المثقفين بحكم ثقافتهم ونمو عقليتهم، فلم يلجأوا إلى المزارات والمشايخ كما كان يلجأ آباؤهم، ولكن أخشى أن يكون كثيـر منهم لا يلجأ إلى ا أيضا كما كان يلجأ آباؤهم.

والآن ننتقل إلى نوع آخر من الإصـلاح كـان مظهـره مدحت باشا في تركيا.

علي باشا مبارك

(١٢٣٩ – ١٣١١هـ - ١٨٢٣ – ١٨٩٣م)

"برنبال" الجديدة قرية صغيرة كسائر قرى الفلاحين بمصر تابعة لمركز (دكرنس) من مديرية (الدقهلية) تقع على البحر الصغير، بها أربع حارات، ومرافقها الاجتماعية. مسجد للصلاة، وكتاب لتعليم القرآن، ودكان لعطار، ومعملان لتفريخ الدجاج، وأربعة أنوال يدوية لنسيج الصوف، ودكانان لصبغ الثياب البيضاء صبغة زرقاء، وضريحان لوليين يستشفي بهما الأهالي لقضاء الحوائج، وأربعة مضايف لكل حارة مضيفة، تقام فيها مآتم الحارة وأفراحها واحتفالاتها في الأعياد والمواسم، وباعة صغار لبيع الخضر وما إليها، وبعض صناع يقومون بصناعة ساذجة كنجار للسواقي ونوتي للمراكب تجري في البحر الصغير، وفي الجهة القبلية منها جبانة لدفن الموتى، وحولها الأراضي الزراعية ليس فيها من الأشجار إلا نخلتان.

يسكن حارة من حاراتها أسرة تتكون من نحو مائتي شخص يعيش أفرادها كسائر الفلاحين ببهائمهم ودواجنهم

وأدواتهم الزراعية، وعلى رأسهم الشيخ مبارك، وكان يقـوم بكل الشئون الدينية في القرية، فهو إمام مسـجدها وخطيبـه وهو (مأذونها) يعقد عقود زواجها، ويسجل صيغ طلاقهـا، ويستفتي في المسائل الدينية تعرض لأهلها، ورث ذلك عـن أبيه وجده حتى سميت الأسرة بأسرة (المشايخ) وتزوج الشيخ أكثر من زوجة، رزق منهن أولادا كثيرين، إحداهن رزقـت سبع بنات واحدا سماه عليا، وكلهم يعيش على الدخل التافـه والرزق القليل.

في هذه البيئة ولد علي مبارك، ووقعـت عينـه أول مـا وقعت على هذه المشاهد الطبيعية والاجتماعية. ولعلـه يـوم ولد بشر به أبوه وسلم له في يده ليبارك عليه وأذن في أذنـه أمل فيه أن يكون حلقة في سلسلة (المشايخ) يـرث الإمامـة والخطابة والإفتاء لأهل القرية عن أبيه، كما ورثها أبوه عن جده وما ورثها جده الأدنى عن جده الأعلـى. ولـو جـرت الأمور مجراها المألوف لكان هذا، فما ظنك بطفل فقير مـن أسرة فقيرة في (برنبال) البعيدة عن مراكز المدينة والحضارة إلا أن يسعده الحظ فيكون إمام مسجد؟! ولكن للقدر شـئونه و تصرفه.

على هذا المنهج أرسله والده إلى كتاب (برنبال) وفقيهه إذ ذاك رجل أعمى شديد عنيف، وافق اسمه مسماه، فكان يسمى أبا عسر، كان له الفضل في أن يكره (عليا) في التعليم والحفظ.

وشاء ا أن تنكب هذه الأسرة جميعها بما كانت تنكب به أسر كثيرة في البلاد إذ ذاك، فكثيرا ما كان يهمل الفلاحـون زراعة أرضهم شعورا منهم بأن غلتهم ليست لهم، وإنما هي مطمع الحكام: يطمع الحاكم الأعلى في الحاكم الأدنى ويطمع الحاكم الأدنى فيمن دونه، وهكذا حتى يصل إلى الفلاح، فإذا عجزت غلة الأرض عن أداء الضريبة أخذت الأرض منـه وأعطيت لغيره، وكان هذا العطاء مصيبة كبرى علـى مـن يعطى لشعوره بأنـه يمـط ليسـخر، يسـخر فـي الأرض وزراعتها لتكون غلتها لغيره، ولذلك كـانوا يعبـرون عـن إعطاء هذه الأرض تعبيرا صحيحا صادقًا؛ إذ يقولون (رميت عليه الأرض) وهذا ما أصاب أسرة الشيخ مبارك، فقد رميت عليها أرض، فلما جاء المصلحون يحصلون الضـرائب لـم تكف الزراعة فباعوا بهائمهم وأثاث منـازلهم، ثـم رأوا أن لا بد بعد ذلك أن يهجروا البلد وتنقل الشيخ مبارك وأسـرته

في البلاد إلى أن نزل على عرب في (الشـرقية) يسـكنون الخيام، يسمون عرب (السماعنة) فأقاموا لـه خيمـة مثـل خيامهم، ورأوا فيه ما يسد مطالبهم الدينية، فكان مرجعهم في الفتيا وإمامهم في الصلاة، كما كان في بلدته (برنبال). فلمـا استقر به الحال فرغ للتفكير في تعليم علي، فأرسله إلى كتاب في قرية قريبة من الخيام، ولكن لم يكن يتيسر له أن يـذهب كل يوم إلى الكتاب ويعود فكان يسكن مع سيدنا ويزور أبـاه مرة كل يوم جمعة. ولم يكن حال هذا الفقيه خيرا من حـال (أبي العسر) وإن كان اسمه (أبا الخضر) فكان علي يجتهـد في إرشائه بما يستطيع أن يحمله إليه كل أسبوع ليخفف عنه. فلما توالى عليه العنف كره الكتاب بتاتًا بعد أن كان قد حفظ القرآن.

هنا حدثت الأزمة، فعلي لا يريد الكتاب بتاتًا. وماذا لقي منه إلا الضرب؟ ثم ماذا يكون مصيره لو نجح في الكتاب؟ أليس إلا أن يكون كأبيه إمام مسجد ومفتي قرية؟ وهذا مطلب لا يقنعه ولا يرضيه، وأبوه مصمم على الكتاب. واصطدمت الإرادتان فغلبت إرادة علي.

ولكن أفهمه أبوه وأخوته أنه لابد أن يتعلم شيئًا ما، وكان إذ ذاك في البلاد طبقة من الكتاب الصغار يكتبون للناس في مطالبهم وأغراضهم أو يمسحون [1] الأرض لهم، ففضل أن يكون صبيا لأحد هؤلاء ورضى أبوه بهذا الحل، فهو يلتحق تلميذًا لكاتب من هؤلاء ويتنقل بينهم" ولم يكن حظـه معهـم خيرا من حظه في الكتاب، فالضرب هو الضرب والبؤس هو البؤس. ومنهم من يأجره أجرا قليلاً، ثم يأكل عليـه أجـره، ومنهم من يسأله: كم الواحد في الواحد؟ فيقول: اثنان. فيرميه بأداة أمامه على رأسه فيشجه. فهذه أيضـا حالـة لا تنفـع. فيهرب من أمه وأبيه لضـغطهما عليـه فـي العمـل بمـا لا يرضيه ويهيم على وجهه متنقلاً في البلاد، وأبوه يلاحقه، ويتعرض أثناء ذلك للإصابة بالكوليرا أحيانًا وللسجن بسـبب وشاية أحيانًا. وأخيرا شاء القدر أن يسعى له السجان ليكـون كاتبا صغيرا عند مأمور كبير، وشفع له في ذلك حسن خلقه وجودة خطه، كان هذا الموظف الكبير "عنبر أفندي" مـأمور زراعة القطن بأبي كبير، فلما وقع عليه نظر علـي مبـارك

---

(١) يمسحون: يقيسون.

وقع في حيرة شديدة، إذ رآه أسود حبشيا، وعهده بالحاكم أن يكون أبيض تركيا، فما الذي أهله لهـذا المنصـب الكبيـر. وكبار الناس يخضعون له ويمتثلون أمره ويجلون قدره؟ وإذا كان هذا الأسود قد بلغ هذا القدر.. فلم لا أبلغه وأنـا علـى الأقل وسط بين الحبشي والتركي؟ ولكن ما السر في بلـوغ هذا الأسود هذا المنصب؟ لغز صعب عليه حله، وكلما سـأل عنه أحدا أجابه إجابة لا تقنعه، وقد سأل أباه يوما – بعـد أن رضى عنه – عن السبب في ذلك، فأجابه بالقضاء والقـدر، وأن ا   إذا أراد شيئًا فلا راد لمشيئته، وقد شاء أن يكون هذا العبد الأسود حاكما مطاعا فكان، ولكن هذا أيضا لم يقنعه.

وأخيرا أخذ يتحرى السبب من خدم المأمور، نعرف أن هذا العبد كان مملوكًا لسيدة من كبرى السيدات، وقد أدخلته مدرسة قصر العيني فتعلم فيها الخط والحساب واللغة التركية وغير ذلك، وأن هذه المدرسة تخرج الحكام – إذ ذاك – وضع يده على سر الأمر، فهناك مدرسة لتخريج الحكام وهي لا تقيد بالأتراك، فقد كان هذا العبد الأسود تلميذًا فيها، فإذا استطاع أن يصل إلى الدخول في هذه المدرسة أصبح حاكما كعنبر أفندي. ولكن كيف السبيل؟ - أصبحت هذه المدرسة

شغله الشاغل، وهمه بالليل والنهار، وسؤاله المتكرر ممن يأنس منهم المعرفة – أين مدرسة قصر العيني؟ وما هو الطريق إليها؟ وما المسافة بين كل مرحلة وأخرى؟ وكيف يأخذون التلاميذ لها؟ وهكذا، ثم يكتب كل هذا في ورقة معه، وقد صمم على أن يحتال للدخول في هذه المدرسة بأية وسيلة.

وكان أهم ما عرفه عن هذه المدرسة أن مفتشًا يمر على مكاتب القرى من حين إلى حين يختار أنجب التلاميذ وأذكاهم، فيلحقهم بمدرسة قصر العيني.

هذا هو علي مبارك يترك العمل عند عنبر أفندي ويلتحق بكتاب ينتظر المفتش، ويحاول أبوه مرارا أن يصده عن ذلك فلا يفلح، ثم إذا بالمفتش يحضر ويختار علي مبارك فيمن يختارهم. وإذا هو تلميذ بمدرسة قصر العيني يمني نفسه الأماني في أنه سيكون حاكما كعنبر أفندي، وعمره إذا ذاك نحو اثنتي عشرة سنة كانت حافلة بالمغامرات الغريبة، والمفاجآت العجيبة، والصبر على البؤس والفقر والغربة.

دخل علي مبارك مدرسة قصر العيني، ولكنه سرعان ما شعر بخيبة الأمل، فلم يجد المدرسة هي الجنة التي وعد

المتقون، وإنما هي النار التي يشقى بها المجرمون، وكانت المدارس المدنية إذ ذاك في أول العهد بها، لم يستقر أمرها ولم تنظم شئونها، فلم تعجبه في علمها، إذا لم يجد هندسة ولا حسابا كما قيل له، وإنما كان أكثر الوقت يصرف على تعليم المشي العسكري، ولم يجد أكلاً يرضيه – وهو الفقير القنوع – فكان يفضل عليه الجبن والزيتون يشتريهما من ماله الخاص، ولم يجد نظافة يطمئن إليها، فنومه على حصير قذر، يلتحف ليلة بنسيج من الصوف الغليظ حتى أصيب بالجرب وبكثير من الأمراض. وإذ ذاك تبخرت كل آماله، وزاره أبوه في مرضه، وحاول أن يسرقه، وفكر هو أيضا في أن يفر معه، وما منعه إلا ما سمعه من أن من فر قبض عليه وعذب هو وأهله عذابا شديدا، فسلم الأمر واستمر في المدرسة، ثم من ا عليه فنقل إلى مدرسة الهندسة بأبي زعبل لتخلى مدرسة قصر العيني لتعليم الطب.

وكانت المدرسة الجديدة خيرا من القديمة، ففيها علم كثير يرضي نهمه [1]، ولكنه يقع في مشـكلة عويصـة، فعقلـه

---

(١) نهمه: شدة رغبته.

لا يستسيغ الهندسة ولا النحو بتاتًا، ويسمع للمـدرس كأنـه يسمع تعاويذ سحرية لا يفقه لها معنى، ثم تبين أن المشـكلة مشكلة المعلم لا مشكلة التلميذ، فكانت في نفسه عقدة منعتـه من فهم الهندسة؛ إذ سمعهم يسمون مثلثًا أ ب جـ ـ وآخـر ح د هـ، فاختلط عليه الأمر، ولم يدر لم سمي هذا المثلـث بهذا الاسم دون ذاك، حتى رزق بمعلم حسن التدريس، جمع التلاميذ المتخلفين في فصل، وشرح لهم الهندسة من أولهـا شرحا جليا واضحا، وأبان أن هذه التسمية للمثلثات وسـائر الأشكال ليست إلا مواضعات [1] للشرح والتفسير، فالمثلـث ا ب جـ أو جـ د هـ أو أي حروف كانت ليست إلا أسماء اصطلاحية يسمى بها الشكل، فانحلت عقدة علـي مبـارك، وتفوق على سائر التلاميذ في الهندسة، وكـان أول فرقتـه دائما. ولم يرزق في النحو ما رزق في الهندسة، فظل معمي عليه.

(١) مواصفات: اصطلاحات.

ثم اختاروا من مدرسة أبي زعبل خير التلاميذ وأدخلوهم مدرسة المهندسخانة ببولاق، فكان علي مبارك أحدهم، درس فيها كل فروع الهندسة وما إليها حتى أتمها.

ولما اعتزم محمد علي باشا إرسال بعثة إلى فرنسا اختار المتفوقين من هذه المدرسة فوقع الاختيار عليه فيمن اختيـر، فها هو ذا في باريس بعد برنبال والقاهرة، لا يعرف أي كلمة في اللغة الفرنسية، والمدرسون فرنسيون لا يعرفـون كلمـة عربية، فضاق بالأمر ولم يجد حيلـة إلا أن يجمـع الكتـب الفرنسية الموضوعة للأطفال ويستعين بمن يعرف الفرنسـية من زملائه، ويسهر على حفظها ليلاً، حتى تمكنت منه عادة السهر الطويل والنوم القليل، وهي عادة لازمته طول حياته، وبعد ثلاثة أشهر استطاع أن يتابع الـدروس تلقـى باللغـة الفرنسية، ويفهمها ويتفوق فيها. وتصل سمعته الحسنة إلـى أولي الأمر في مصر – لقد درس سنتين في باريس الهندسة المدنية، ودرس سنتين في "متز" الهندسة الحربية، وتمرن في ذلك نحو سنة أخرى، فكانت إقامته في فرنسا نحـو خمـس سنين رأى المدارس والجامعات ونظم التعليم وحالـة الـبلاد الاجتماعية، وأخذ من كل ذلك على حسب اسـتعداده ودقـة

نظره، ولم ينس أبدا وهو في باريس ومتز أبويه في عـرب السماعنة أو برنبال، فقد رتب له مائتـان وخمسـون قرشًـا ليصرف منها على شئونه الخاصة غيـر مسـكنه ومأكلـه وتعليمه، فنزل عن نصفها لأبويه منذ فارق القاهرة إلـى أن عاد...

لقد سافر إلى فرنسا في عهد محمد على باشا وعـاد فـي عهد عباس الأول، كان عهد عباس هذا عهد انكمـاش فـي التعليم؛ إذ لم يكن يرضى عن الحركة العلمية في البلاد بـل كان همه بناء القصور لا فتح المدارس، بـل ولا الاحتفـاظ بالموجود فألغى الكثير منها، وخفض ميزانية التعلـيم حتـى بلغت خمسة آلاف جنيه، وكان أميل إلى تعليم أولاد الأتراك دون المصريين، فعهد إلى علي مبارك في إدارة البقية الباقية القليلة من المدارس.

وكان طريفًا أن يزور يوما أبويه في برنبال – بعد أن عاد إليها – وكان قد مضى عليه أربعة عشر عاما لم يـر أهلـه ولا بلده؛ إذ كانت المدرسة في مصر ثكنة عسـكرية قاسـية النظام، من كان فيها لا يزور ولا يـزار، فأمضـى سـني الدراسة في مصر كسنيه في فرنسا، لا يرى أهلـه، حتـى

أتيحت له الفرصة فعرج علـى برنبـال لابسـا بزتـه [١] العكسرية على النمط الفرنسي، متقلدا سيفًا. وكان وهو فـي الطريق يسترجع أحداث الماضي: كيف كان فـي الكتـاب، وكيف كان يضرب، وكيف كان يهرب، وكيف قسـا عليـه الكتبة الذين التحق بخدمتهم، وماذا تحمل من المشاق حتـى وصل إلى مدرسة قصر العيني، وكيف كانـت حياتـه فـي باريس ومتز؟ ودق الباب ليلاً فأجابته أمه: من؟ فقال: علـي مبارك، فلم تصدق ونظرت إليه من خرق البـاب، وسـألته أسئلة تتعرف منها صدقه، حتى إذا فتحت الباب ورأته وقعت مغشيا عليها، ثم أفاقت وهي تهذي، تبكي وتضحك وتزغرد، ثم يخرج من جيبه عشرة (بنتو) لتقيم الولائم وتدعو معارفها من أهل البلاد. وكلهم مغتبط بما أنجبت برنبال من حاكم مـن الحكام.

توالت على "علي مبارك" أيام بؤس وأيام نعـيم، وكانـت حالة في مصر غير مستقرة، وكل الموظفين وخاصة كبارهم رهن بإشارة الحاكم ورهن بما يحاك حوله من دسائس، فيوما

(١) بزته: ثيابه.

يرضى فيرفع إلى السماء، ويومـا يغضـب فينزلـه إلـى الحضيض، والبيت الحاكم منشق على نفسه. إذا تقرب أحـد إلى بعضه غضب عليه بعضه الآخر، يرضى محمـد علـي باشا وإبراهيم باشا عن الشيخ رفاعة الطهطاوي، فإذا جـاء عباس غضب عليه وأخرجه من إدارة مدرسة الألسن وعينه ناظرا لمدرسة ابتدائية تنشأ في الخرطوم، ويرضى عبـاس الأول عن علي مبارك ويقربه إليه، ويعهد إليه في تنفيذ أمور كثيرة، فإذا جاء سعيد باشا غضب على علي مبارك وأعـاد الشيخ رفاعة الطهطاوي وقربه إليه.

ولما غضب سعيد باشا على "علي مبارك" ألحقه بالفرقـة الحربية التي سافرت لمساعدة الدولة العثمانية في حربها مع روسيا، فأقام ببلاد تركيا (الآستانة والأناضول) نحو سـنتين لقي فيهما عناء كبيرا وشقاء جما فاحتمله في صبر وثبـات، ومع هذا فقد استطاع في هذه المدة أن يتعلم اللغـة التركيـة ويجيدها، وعاد إلى مصر يوظف حينًا ويطرد حينًـا. فـإذا طرد فكر في الأعمال الحرة، فاشتغل تاجرا أحيانًا، يشـتري من "الزاد" بعض السلع المدرسية التي تبيعها الحكومة بعد أن قللت من مدارسها ويبيعها بربح يكفل له رزقـه، ويشـتغل

أحيانًا مهندسا حرا، يضع "تصميمات" منـازل لمـن شـاء، وصمم أحيانًا على أن يعود إلى أهله في برنبال يعمل عمـل الفلاحين ويعيش معيشتهم وعلى ا العوض فيما تعلم، وفي كل مرة لا يلبث طويلاً حتى يستدعي لوظيفة، ولا يلبث فـي وظيفة طويلاً حتى يطرد. ولما جاء إسماعيل باشـا أعيـدت الحياة العلمية وتوسع فيها، واستقر الحال بعلي مبـارك فـي درجة ما، فكان هذا العهد أبرك عهوده، وأخصبها وأكثرهـا إنتاجا – لقد عمل علي مبارك أعمالاً كثيرة تتصل بما اختص به من هندسة مدنية وحربية، فقد عهد إليـه فـي "تصـميم" شوارع وفتحها و"تصميم" ترع وإنشـائها، وبنـاء جسـور واستحكامات ومساجد وغير ذلك من أعمال هندسية عظيمة، ولكن كل ذلك لم يكن سر عظمته وصحيفة خلوده، إنما كان ذلك في شيء لم يتعلمه ولم يتلقه عن أستاذ، هـو إصـلاحه للتعليم في مصر بالوسائل المختلفة، وبناؤه فـي ذلـك بنـاء ضخما يعد دعامة النهضة التعليمية في مصر – لقد أريد لـه أن يهندس المباني والاستحكامات فهندس هو طرق التربيـة والتعليم، ووضع تصميماتها، ووقف على تنفيذها فـي دقـة وأحكام، حتى عد من كبار المصلحين.

لم يـتعلم فـي مصـر ولا فـي فرنسـا البيـداجوجيا ولا السيكولوجيا على معلم مختص، وإنما تعلمها من حسـن استعداده وصدق نظره، ومن دروس في التربية الفاسدة تلقاها في الكتاب حين يضرب وفي مدرسة قصـر العينـي حـين يعذب، ومدرسة أبي زعبل حين يلقى عليه الدرس فلا يفهم، هذا إلى طبيعة خيرة توحي إليه بالرحمة بالنـاس والإشـفاق عليهم والألم من جهلهم. لقد وصف هو نفسه؛ إذ عهد إليـه مرة في إدارة مدرسة فقال: "كنت ألتفت للتلاميذ، في مأكلهـا ومشربهم وملبسهم وتعليمهم، وكنت أباشر ذلك بنفسي، حتى أعلم التلميذ كيف يلبس وكيف يقرأ وكيف يكتـب، وألاحـظ المعلم كيف يلقي الدرس وكيف يؤدب التلامذة، ولا يمضـي يوم إلا وأدخل عند كل فرقة وأتفقد أحوالها، مع التشديد على الضابط والخدمة حتى الفراشين في القيام بما عليهم، فـامتنع بذلك عن التلامذة مضار عمومية ومفاسد كثيرة، ولم أكتـف بذلك بل رتبت على نفسي دروسا كنت ألقيها على التلامذة... وكان ما يحصل للتلامذة ومعلميهم مـن المكافـآت والثنـاء والتشويق والترغيب داعيا لهم لزيادة الجد والاجتهاد، وجرت بين المعلمين المودة والألفة، وتربت الأطفال على الأخـوة،

وغرس فيهم حب التقدم وشرف النفس والعفة، واكتفيت فـي تأديب من فرط منهم حب التقدم وشـرف الـنفس والعفـة، واكتفيت في تأديب من فرط منهم بالنصيحة واللوم، وانقطـع الشتم والسفه، وكاد يمتنع الضرب والسجن، وبالجملة كانـت أغراضي فيهم أبوية، أنظر للجميع من معلم ومـتعلم نظـر الأب لأولاده. وإلى الآن أعتقد أن ذلك واجب على كـل راع في رعيته، حتى يحصل الغرض من التربية. وقد تحقق لـي نتيجة ما صرف من الهمة في تربيتهم والشفقة عليهم، حتـى أنه لما تولى سعيد باشا ودعيت للسفر مع العساكر لمحاربـة المكسوف مع الدولة العلية خرج جميـع التلامـذة كبيـرهم وصغيرهم من المدرسة قهرا عن ضباطهم لوداعي، وجعلوا يبكون وينتحبون انتحاب الولد على والده، حتى بكت عينـي لبكائهم، ولكن انشرح صدري لمشاهدة ثمرات غرسي، وآثار تربيتي، فحمد ا ".

كان التعليم المدني الذي أنشأه محمد علي في مصر تعليم أساسه الجيش: فالمدارس الحربية لتخريجه، ومدرسة الطـب لطبيبه، والهندسة لتصميماته، والمدارس الصناعية لإمـداده، والبعثات لسد حاجات، فإن جاءت من كل ذلك فائـدة لغيـر

الجيش، فبالتبع لا بالقصد، حتى أن المدارس كانـت ثكنـات عسكرية في نظامها ومأكلها وملبسـها، ورتـب المعلمـين والنظار والمديرين رتب عسكرية، فملازم وصاغ وأميرالاي وميرمران إلخ، حتى الطلبة في البعثة في باريس لهم بيـت يقيمون فيه يدار إدارة عسكرية، كل أنواع التعليم على هـذا الوجه في القاهرة والإسكندرية فقط، أمـا المـدن الأخـرى والأرياف فليس لها حظ من هذا التعليم. وبجانب هذا التعلـيم تعليم آخر يبتدئ بالكتاب، وهو منتشر في القـاهرة والمـدن والقرى وينتهي بالأزهر، وهذا التعليم لا تعني به الحكومـة ولا تتدخل فيه ولا يهمها أمره، وكل ما فعلـه عبـاس الأول وسعيد أن ضيقا التعليم المدني، حتى إذا جاء إسـماعيل بـدأ يتغير هذا النظام وينظر إلى التعليم نظرة أخرى غير النظرة الحربية، وكان من أكبر العاملين على هذا علي مبارك – فلو قلنا إنه حول التعليم من وجهة حربية إلى ثقافة شعبية، كـان ذلك وصفًا مجملاً صادقًا.

رأى أن عماد التعليم الشعبي الكتاتيب في المدن والقرى، وهي حالة يرثى لها [1]، فكثير منها إما دكـان أو "حاصـل" أو في حجرة مظلمة بجانب مراحيض المسـجد، والتلامـذة يختلط صحيحهم بمريضهم، وقد يكون المرض معديا، فأقرع وأبرص وأجرب ومحموم ينشرون العدوى فـي الأصـحاء. يجلسون على حصير بال ويشربون بكوز واحد مـن زيـر واحد ويأكلون في الظهر من صحن واحد، وفقيـه الكتـاب كثيرا ما يكون أعمى لا يحسن أن يرعـى التلاميـذ، ولا أن يدير شئونهم، وكل كفايته أن يحفظ القرآن ويحفظه من غير فهم، لا علم له بالدنيا ولا بالدين، ووسائل التأديب عنده ليست إلا السب والضرب.

بدأ علي مبارك – وقد عهد إليه في إدارة التعليم في عهد الخديوي إسماعيل – يصلح هـذه الحـال ويـدخلها تحـت الإشراف الحكـومي، بعـد أن كانـت الحكومـة لا تعنـي إلا بالمدارس الحربية، وما يعد لها. فقـبض بيديـه عليهـا، وأرسل من يحصي كل كتاتيب القطر ويصف حالة كل كتاب

(١) يرثى لها: تستوجب الرحمة والإشفاق.

من صلاحية بنائه وعدم صلاحيته وعدد تلاميذه وحالة فقيهه وتبعيته لأوقاف أولاً ونحو ذلك، وقسمها بحسب ذلك إلى ثلاث درجات: جيدة ومتوسطة ورديئة، ووضع لها "لائحة" تسمى "لائحة رجب" – وهو تاريخ صدورها – تعد بحق خطوة خطيرة في تاريخ التعليم في مصر، عالج فيها كل المشاكل التي صادفته من مراعاة الأمور الصحية وتدبير المال اللازم ورفع مستوى الفقهاء – وقد سماهم "المؤدبين" – وبرامج التعليم ووسائل تشجيعه وإشراف الأهالي والمديريات في حمل بعض الأعباء المالية والتعليمية وتحويل بعض الكتاتيب الكبيرة الصالحة إلى مدارس ابتدائية، ووجه في تنفيذ ذلك كل قواه، وكثيرا ما كان يعهد إليه – إلى إدارة المدارس – في إدارة الأشغال وإدارة الأوقاف، فيكون ناظر هذه جميعها (وزيرها) فيسخر الأشغال لإصلاح مباني المدارس والكتاتيب، ويصرف من مال الأوقاف على التعليم، حتى انتقل التعليم به نقلة جديدة.

نعم ليس كل الفضل في ذلك له وحده، فقد كانت البلاد تتوق إلى إصلاح التعليم، وقد طالب به مجلس الشورى، وكان هذا الإصلاح يتفق وما رسم الخديوي إسماعيل من

رغبة في تمدين البلاد، ولكن كان فضل علـي مبـارك أن يأخذه الفكرة الخيالية، فيحولها إلى حقائق واقعية، ويدرسـها دراسة علمية، ويضع خططها وتصميمها كما تعود ذلك فـي التصميم الهندسي، ويبرزها على الوجود ويرعاها بعنايته.

إلى جانب الكتاتيب وفتحها وتنظيمها والمدارس وإنشـائها شغلته مسألة المعلمين كيف يصلحهم، فقد كان يقوم بتـدريس اللغة العربية في المدارس رجال من الأزهر، والتعلـيم فـي الأزهر إذ ذاك على أسلوبه في القرون الوسطى، يعلم الكتب ولا يعلم العلم وغاية النابغ منهم أن يحسن فهم عبارة الكتاب لا فهم موضوع الكتاب، وهذا يؤدي إلى أنه لا يحسن تطبيق ما تعلم، فأكثرهم لا يحسن قـراءة صـفحة ولا أن يكتـب موضوعا، ولا أن يقيم وزنًا لبيت من شعر، كمـا وصـفهم بذلك عبد ا باشا فكري في مقال كتبه، فكيف يصلحون بعد لتعليم الناشئة؟

إذا ذاك فكر على مبارك في إنشاء مدرسة يؤخذ لها مـن خيرة طلبة الأزهر بامتحان، ويختار لها خيرة العلمـاء مـن الأزهر وغيره، ويعلم طلبتها العلوم الدينية واللغوية وشـيئًا من علوم الدنيا كالرياضة والجغرافيا والتـاريخ والطبيعيـة

والكيمياء، فكان من ذلك كله مدرسة دار العلوم. أما معلمـو المواد الأخرى كالهندسة والحساب واللغـات، فقـد رأى أن يأخذهم ممن أتموا دروسهم في المدارس العالية كالمهندسخانة ومدرسة المحاسبة والإدارة بعد أن يقضـوا مـدة معيـدين لأساتذتهم.

وفكر في الثقافة العامة بجانب التعليم في المدارس، فكان له من ذلك ثلاثة أشياء:

١- قاعة للمحاضرات يحضرها من شاء، يحاضر فيهـا كبار الأساتذة من مصريين وأجانب، فيحاضر مـثلاً الشـيخ حسين المرصفي في الأدب وإسماعيل بك الفلكي في الفلـك والشيخ عبد الرحمن البحراوي في الفقه، ومسيو بروكش في التاريخ العام وأحمد ندا في النبات، فإذا حاضـر محاضـر باللغة الأجنبية ألقيت محاضرته بعد ذلك باللغة العربية، وهذه المحاضرات يومية ما عدا أيام الجمع، وكل محاضرة ساعة ونصف ساعة، وبعض الموضوعات محاضرتان كل أسبوع وبعضها محاضرة واحدة.

٢- إنشاء مجلة سميت "روضة المدارس المصرية" رأس تحرير الشيخ رفاعة الطهطاوي، وذكر في أول عدد منها أن

مدير المدارس وهو علي باشا مبارك "جعلها ملحوظة بنظر نظارته لا يندرج فيها شيء إلا بإشارته" وطلب من الأساتذة أن يمدوها بالمقالات، وكان ينشر فيها بعض ما يلقى في قاعة المحاضرات وكان في العدد الأول منها مقال لعلي مبارك موضوعه "إنشاء دار الكتب الخديوية".

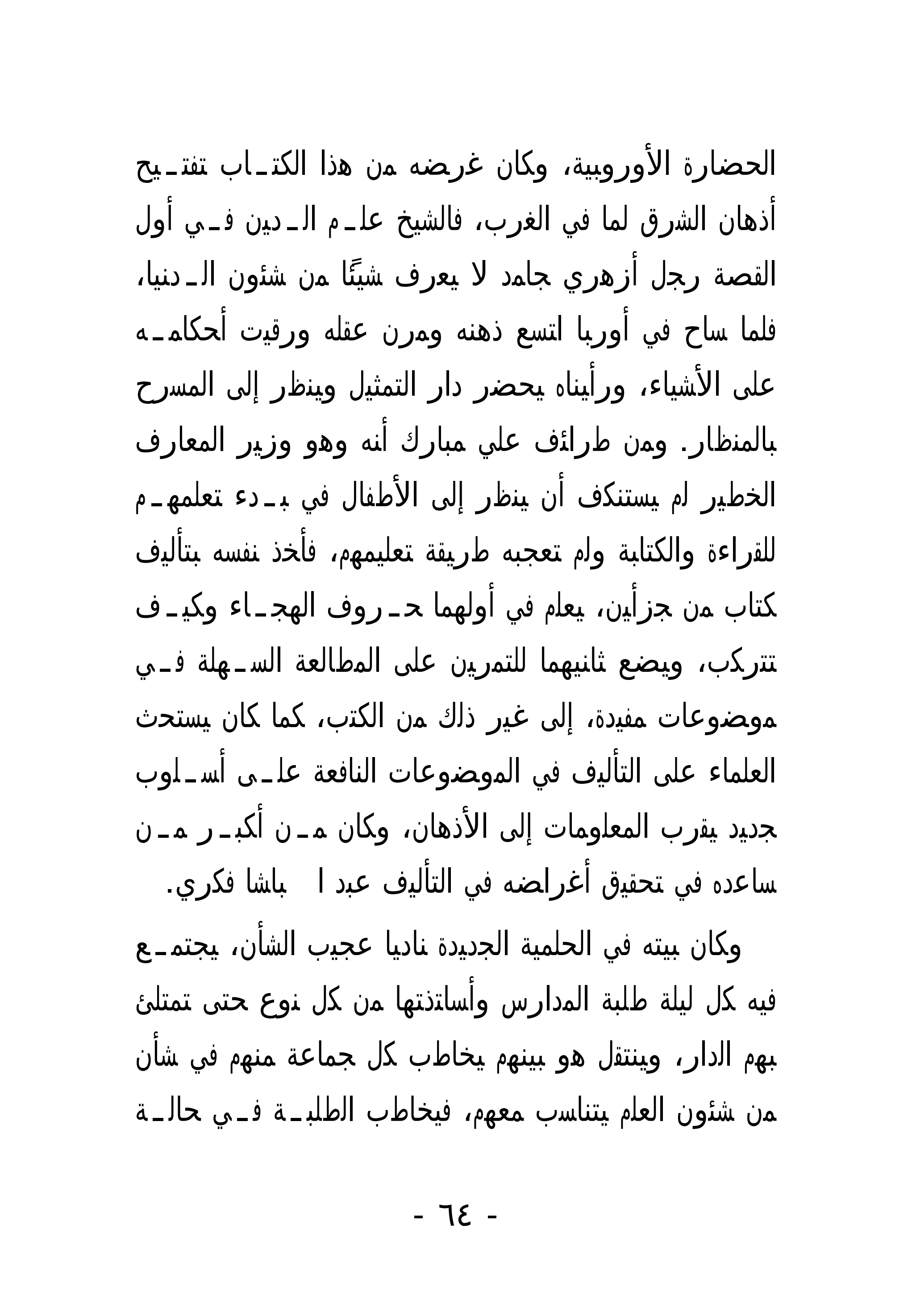
٣- إنشاء دار الكتب، وقد كانت الكتب قبل ذلك متفرقة في المساجد أو الأماكن المهجورة عرضة للسرقة أو التلف، فجمعها في مكان واحد ورتبها وسهل الاستفادة منها وجعل لها قاعة مطالعة.

فكان من ذلك كله حركة علمية شعبية ساعدت على النهضة المصرية.

وأعانه على نجاحه في خططه ما كان يلقي مـن عطـف وتشجيع من الخديوي إسماعيل، فهو يقر مقترحاتـه ويبـذل المال لتنفيذ مشروعاته.

وناحية أخرى لها قيمتها في حياة علي باشا مبارك، وهي مجهوده الكبير في التأليف والتشجيع عليه، فقد نهضت البلاد في التعليم كما بينا، فكان لا بد مـن حركـة فـي التـأليف والترجمة تسايرها، وقد قام بقسط وافر في هذا الباب الشـيخ

رفاعة الطهطاوي، فقام علي باشا مبـارك بنصـيبه الـوافر أيضا، فألف في مهنته الخاصة، وهي الهندسة، كتبا للطلبـة، وألف كتبا أخرى في الثقافة العامة أهمهـا خططـه لمصـر المسماة "بالخطط التوفيقية" يصف فيهـا القـاهرة وحاراتهـا وشوارعها ومساجدها ومدارسها كما يصـف مـدن مصـر وقرأها مرتبة على حروف الهجاء. وإذا ذكـر قريـة ذكـر ترجمة من نبغ منها أو كانت له شهرة في ناحية ما، وذكـر في ذلك كله أقوال المتقدمين والمتأخرين، فكان كتابا جليـل النفع عظيم القدر أكمل به خطط المقريزي وما حدث للقاهرة والمدن والقرى المصرية من تغيير بعده إلى يوم تأليفه، ووقع الكتاب في عشرين جزءا أو خمسة مجلدات. كما ألف كتابـا سماه "علم الدين" وهو قصة لشيخ تربي في الأزهر وتتلمذ له مستشرق إنجليزي تعلم منه اللغة العربية ودعاه الإنجليـزي أن يزور معه إنجلترا فلبى الدعوة، وكانا كلما مرا على شيء من القاهرة إلى الإسكندرية سأل الإنجليزي الشيخ علم الدين فأجابه، وبعد الإسكندرية انقلب الشيخ تلميـذًا والإنجليـزي معلما، يسأل الشيخ عن كل ما يجهل فيجيب الإنجليزي، وملأ الكتاب بمعلومات قيمة عـن الشـرق والغـرب ومظـاهر


الحضارة الأوروبية، وكان غرضه من هذا الكتـاب تفتـيح أذهان الشرق لما في الغرب، فالشيخ علـم الـدين فـي أول القصة رجل أزهري جامد لا يعرف شيئًا من شئون الـدنيا، فلما ساح في أوربا اتسع ذهنه ومرن عقله ورقيت أحكامـه على الأشياء، ورأيناه يحضر دار التمثيل وينظر إلى المسرح بالمنظار. ومن طرائف علي مبارك أنه وهو وزير المعارف الخطير لم يستنكف أن ينظر إلى الأطفال في بـدء تعلمهـم للقراءة والكتابة ولم تعجبه طريقة تعليمهم، فأخذ نفسه بتأليف كتاب من جزأين، يعلم في أولهما حـروف الهجـاء وكيـف تتركب، ويضع ثانيهما للتمرين على المطالعة السـهلة فـي موضوعات مفيدة، إلى غير ذلك من الكتب، كما كان يستحث العلماء على التأليف في الموضوعات النافعة علـى أسـلوب جديد يقرب المعلومات إلى الأذهان، وكان مـن أكبـر مـن ساعده في تحقيق أغراضه في التأليف عبد ا باشا فكري.

وكان بيته في الحلمية الجديدة ناديا عجيب الشأن، يجتمـع فيه كل ليلة طلبة المدارس وأساتذتها من كل نوع حتى تمتلئ بهم الدار، وينتقل هو بينهم يخاطب كل جماعة منهم في شأن من شئون العلم يتناسب معهم، فيخاطب الطلبـة فـي حالـة

مدارسهم ومقدار تحصيلهم للدرس، وما يتكون منه من نظـام التدريس وما يقترحون لإصلاحها، ويخاطب المدرسين فـي تدريسهم وانتقاداته عليهم، ويستحثهم علـى التـأليف فـي الموضوعات التي يقترحها، وما ينبغي أن تكون عليه الكتب في أيدي الطلبة، ويلتمس الفرص ليشرح لهم الأخطاء التـي يقع فيها الطلبة ويقع فيها الأساتذة وتأخر الشـرق وأسـباب تأخره تقدم الغرب وأسباب تقدمه إلى غير ذلك. حدثني عبـد العزيز باشا فهمي، قال:

"كنت يوما في بيت علي باشا مبارك، والناس تموج فـي بيته، الحجر مزدحمة بالزوار، وعلي باشا يتصـدر حجـرة منها، فحضر مصطفى باشا رياض وكان نـاظر النظـار إذ ذاك، فأخذ يخوض في الناس حتى وصل إلـى علـي باشـا مبارك فقال له: "ما هذا يا باشا؟" فقال له: "يا دولة الرئيس أنا في بلد يهاب الناس فيه أن يخاطبوا معاون إدارة أو مـأمور مركز أو أي موظف حكومي، فإذا نحن جرأناهم علينا وعلينا وخاطبناهم، وخاطبونا، وأمكنهم أن يخاطبوا الموظفين فـي غير هيبة، وتعودوا أن يطالبوا بحقوقهم، وقالوا: أنا نجـالس

الناظر (الوزير) ونخاطبه، فلم لا نخاطب من هو أقـل منـه منزلة؟".

لم تكن خطط علي باشا مبارك في التعلـيم فـي المثـل الأعلى، ولا كانت خالية من العيوب، ولكنها كانـت خطـوة مباركة صالحة لأن ترقى مع الزمان، ويصلح ما ظهر فيهـا عند التنفيذ من أخطاء، كما حدث ذلك فعلاً في وزارة رياض باشا من بعد، ولكن ساءت الحال في مصر بتدخل الأجنبـي بدعوى حماية الدين، كما أسلفنا في ترجمـة جمـال الـدين الأفغاني وجـاءت الثـورة العرابيـة وأعقبهـا الاحـتلال الإنجليزي، فقبض الإنجليز على التعليم، وصبغوه الصـبغة التي يريدونها.

لم يشترك علي مبارك في الثورة العرابية؛ إذ كان مزاجه ليس مزاجا ثوريا بحكم منشئه وتربيته – عكس مزاج الشيخ جمال الدين، الثوري العنيف – وكان مبدؤه الطاعـة التامـة لولي الأمر، مهما كان. أطاع عباس الأول وسعيد وإسماعيل وتوفيق، وخدمهم في إخلاص، ولعله – كبعض المصلحين – يرى إن إصلاح التعليم خير أنواع الإصلاح، بل هو خير من الإصلاح السياسي، ويرى أن الإصلاح السياسي ما لم يرتكز

على الإصلاح التعليمي فلا بقاء له ولا قيمة – لذلك لا نرى له إصبعا ما في الثورة العرابية. ولقد اتهم كثير من عقـلاء الأمة بمشايعة عرابي باشا، كعبد ا باشا فكـري والشـيخ محمد عبده، وغضب عليهما الخديوي توفيق، ولكن لم يـتهم علي باشا مبارك في شيء ما، ولم يفقد رضا توفيـق باشـا وعطفه، وإنما فقد رضا عرابي باشا وحزبه، وكل مـا أثـر عنه في الثورة العرابية أنه تبرع يوما بشيء من ماله لهـذه الحركة، ولكن لعل ذلك كان تحت تأثير ضغط شديد عليه من الشبان المتحمسين. وزاده إيمانًا بحياده أنه لم يكـن يـؤمن بنجاح الثورة العرابية، على حسب ما كان يرى من ظروفـه المحيطة به التي تمكنه من الاطلاع علـى شـئون مصـر والشرق والغرب. وقد روى الشيخ محمد عبده أنـه حضـر مجلسا في بيت علي باشا مبارك كان فيه سلطان باشا – وقد أخذ سلطان باشا يشيد بذكره قوة الجيش المصري وما يمكن من زيادة عدده – فرد عليه علي باشا مبارك بأن حالة البلاد المالية لا تتحمل هذه الحرب ولا تساعد على النجاح فيها، ثم رأيناه في أثناء الثورة يذهب إلى بلده ويعمل فـي إصـلاح أرضه، وعلى كل حال فالإنسان مطالب أن يعمل وفـق مـا

يهديه إليه عقله وما يتناسب ومزاجه، وقد كان مزاج علي مبارك مزاجه هادئًا ناسبه أن يوجه أكثر قوته لإصلاح التعليم، ففعل. وربما كان أساس نجاحه شدة غيرته وقوة إخلاصه وعمق رغبته في خدمة وطنه.

وبعد الاحتلال الإنجليزي لمصر ألفت وزارة مصطفى رياض باشا وعهد فيها إلى علي مبارك في نظارة المعارف، ولكن ما أبعد الفرق بين الحالين، وما أشد الاختلاف بين العهدين – لقد كان في العهد الأول قبل الاحتلال حرا طليقًا يفكر كما يشاء ويفعل ما يشاء ويدبر المال لمشروعاته كما يشاء، لا يقيده في ذلك كله إلا عرض العهد فليس حرا ولا طليقًا ولا يفكر إلا إذا سمح له المستشار الإنجليزي بالتفكير، ولا يفعل إلا في الدائرة المحددة التي خطها المحتلون، وقد عبر هو عن ضيق صدره في ذلك بأسلوبه الناعم الهادئ، إذ يقول في هذه الحقبة: "وأنا الآن قائم بهذا الأمر على حسب المصالح، بقدر الإمكان، وا   المستعان".

اصطدم بعد ذلك بالقيود التي قيدت بها المصالح الحكومية، وخاصة القيود المالية التي وضعها مستشار المالية

ربما كان علي باشا مبارك والشيخ رفاعـة الطهطـاوي وعبد ا باشا فكري الفرسان الثلاثة في ميدان العلـم فـي مصر في ذلك العصر، وأركان النهضة العلمية المصـرية، ولكن كان لكل طابع ولكل ميزة، فعلي باشـا مبـارك يهـتم بالمسائل الكلية في سياسة التعلـيم وتنظيمهـا وتخطيطهـا وتنفيذها، وإذا نظر إلى الجزئيات فلتطبيق الكليـات عليهـا، والشيخ رفاعة ينظر إلى المسائل الجزئية ويعني بإصـلاحها وتنفيذها، فإذا عهد إليه في إدارة مدرسة بث الروح فيها، ثم هو يؤلف ويترجم ويبعث تلاميذه على التـأليف والترجمـة، وبهذا أمد البلاد هو وتلاميذه بطائفة من الكتب النافعة كانـت عماد النهضة، وعبد ا باشا فكري كاتب شاعر أديب مؤلف له قيمته في معرفة ما يناسب عصره من التأليف فيؤلف فيه، كان تلاميذ المدارس يعلمون الأدب من مقامـات الحريـري والنحو من كتاب شرح الشيخ خالد على الأجرومية، فـألف كتبه على نمط جديد، وكان تلاميـذ المـدارس الابتدائيـة، لا يجدون ما يطالعونه فألف لهم (الفوائد الفكرية) ثـم كـان أكبر عون لعلي باشا مبارك فيما ألف من كتب – فلكل مـن الفرسان الثلاثة مزية، ولكل فضل. رحمهم ا جميعا.

عبد ا   نديم باشا

(١٢٦١ – ١٣١٣ هـ - ١٨٤٥ – ١٨٩٦م)

إن كان يستحق الإعجاب من نبغ – والظروف له مواتيـة – من أسرة عريقة في المجد أو الغنى أو الجاه ونحو ذلـك مما ييسر للأبناء أن يتعلموا، ثم يشقوا لهـم طريـق الحيـاة وطريق المجد فأولى بالإعجاب من ينبـغ والظـروف لـه معاكسة، لا حسب ولا نسب ولا غنى ولا جاه، بل ولا القوت الضروري الذي يمكن الفتى من أن يجد له وقت فراغ يثقف فيه نفسه.

قد يدعو إلى شيء من الإعجاب منظـر شـجرة يانعـة ضخمة مثمرة، تعهدها بستانيها بكل ما يصلحها، ومن وضع في المكان المناسب والغذاء الكافي، ولـ ري المتـوافر فـي أوقاته، ولكن أدعى إلى الإعجاب بذرة طرحت حيثما اتفـق، فمدت جذورها بنفسها تجد في حصولها على غـذائها، فقـد تجده وقد لا تجده، وتعاكسها الطبيعة فتكافحها وتتغلب عليها، ثم هي آخر الأمر تكون أينع ما كانـت شـجرة وأضـخمها وأوفرها إثمارا. كذلك كان من النوع الثاني "عبد ا   نـديم"،

كل الدلائل تدل على أنه سيكون نجارا أو خبازا، ولو تنبأ له متنبئ متفائل لقال إنه سيكون نجارا ماهرا ناجحا، فأما أديب يملأ الدنيا ويقود الرأي العام ويحسب حسابه في كل ما يخطه قلمه أو تنطق به شفتاه، فلا يدور بخلد أحد حتى فاتح الرمل والضارب بالحصى.

هذا أبوه أصله من الشرقية ورحل منها إلى الإسـكندرية وعمل فيها نجارا للسفن بدار الصناعة (الترسانة)، ثـم لـم يعجبه هذا العمل فاتخذ مخبزا صغيرا يصـنع فيـه الخبـز ويبيعه، ويحصل من ذلك على الكفاف [1] من العيش.

فما بالك بأسرة من هذا القبيل، مسكن متواضع، وخبز إن توافر فإدام [2] غير متوافر، وصحة تترك البت فيها للقضاء والقدر.

ولكن "عم مصباح" والد عبد الله رجل جاد في عمله، قنوع بكسبه، مستقيم – بالضرورة – في حياته، من بيته إلى مخبزه إلى مسجده. أرسل ابنه إلى الكتاب على باب حارته

---

(١) الكفاف: مقدار الحاجة.

(٢) الإدام: ما يصنع به الخبز من ضروب المأكل.

كما يفعل الناس من مثل طبقته، يرسلون أولادهم إلى الكتاب زمنًا ما، فإذا اشتد متنهم [1] وقوي جسمهم أخذوهم إلى دكاكينهم في مثل صاعتهم التي تتوارث كما يتوارث المال.

ولكن عبد ا تفوق في الكتاب، وظهرت عليه ملامح الذكاء، فأراد أن يستمر في تعلمه ولم يمانعه أبوه، وكانت الطريقة المعبدة [2] لذلك أن يرسل الوالد ابنه إلى الأزهر، ولكن أين مال الأسرة الذي يحتمل ذلك؟!

على أنه في الإسكندرية – قريبا من بيتهم – مسجد هـ و صورة مصغرة من الأزهر، يدرس فيه المشايخ ما يدرس في الأزهر وعلى نمطه، وذلك هو مسجد الشيخ إبراهيم باشا.

فدرس فيه عبد ا نديم ما شاء ا أن يدرس، ولكنه كان تلميذًا خائبا في هذه الدراسة، لا يصبر على جفافها، ولا يقدر على حل ألغازها، ولا يتحمل العناء في تفهم كتب نحوها وفقهها فكان لا يواظب على درسه ولا يبدي به اهتماما.

---

(١) المتن: الظهر.

(٢) المعبدة: المسيرة المذللة.

وحبب إليه نوع من الدراسة غير منظم، يوافق مزاجـه، ويناسب استعداده، وهو أن يصـاحب الناشـئين فـي الأدب ويغشى مجالسهم ومجالس أساتذتهم. وما كان لـلأدب درس منظم ولا هو يعد علما ولا فنًا، وإنما هـو "هوايـة" كـذي الصوت الجميل يهوى الغناء ويقلد فيه من سبقه، ولا درس، ولا فن، ومثل هذا ينظر إليه من أهل العلم بـالنحو والفقـه نظرة استخفاف وازدراء، وقد عهدنا هذا في أيـام دراسـتنا بالأزهر، أيام كان الشيخ سيد المرصفي يحلق حلقة لدراسـة الأدب، فكان هذا عجبا من العجب، ينظر طلاب الفقه والنحو ومشايخهم إلى حلقته شذرا [1].

كان عبد ا نديم يغشى هذه المجالس الأدبية التي ليس لها منهج، فيسمع شعر الشاعرين وزجـل الزجـالين، ونـوادر المتماجنين، وقصائد الراوين، فيصغى إلى كل ذلك في فهـم كأنه كله آذان، ويدرك من غير وعي أن هذا بابه وهذا فنه، وأنه إنما خلق لذلك لا للنحو ولا للصرف. فاشتاقت نفسه أن يسلك هذا المسلك ويسير في هذا الطريق، وقد منح حافظـة

---

(١) نظر إليه شزرا: أي بجانب عينيه، إعراضا أو غضبا.

لا قطة، وقدرة على التقليد فائقة فأخذ يحاكي بعد ما اختزن، ويغني بعد ما سمع، فطورا يوفق فيسـتدعي ذلـك إعجـاب أمثاله، وطورا يخذل فيستخرج ضحك أقرانه، ومن كل ذلـك كان يتعلم.

وإلى جانب هذا تعلم درسا في منتهى القيمة، درسا تعلمه "حافظ" ولم يتعلمه "شوقي" وتعلم "بيرم التونسي" ولم يتعلمـه "توفيق الحكيم"، درسا قل أن يفقهه الأدباء مع عظيم خطـره وكبير أثره، ذلك هو أن نشأته في صميم الأحياء الشعبية مع رهافة حسه، ويقظة نفسه، وفقره وبؤسه، علمتـه أن يحـيط إحاطة واسعة بلغة الشعب وأدبه، من أمثال وحكايات وجـوه معاملات وصنوف تصرفات، فرسم ذلك كلـه فـي نفسـه لوحات كان لها أكبر الأثر في حياته الأدبية المستقلة، والنفس الحساسة الفنانة تختزن حتى حفيف أوراق الأشجار، وهفهفة الأغصان، ودبيب النمال، وحلاوة البسـمات، وأدق مجـالي الجمال والقبح، ثم تعرف كيف تستخدم ذلك في فنها متى آن أوانه.

ولكن مرصى [1] بذلك كله، تبا للحياة المادية. هل يكسب من ذلك "عبد ا نديم" قرشًا، وهل يستطيع "عم مصباح" أن يحتمل هذا الهذر طويلًا؟ لقد احتمل الإنفاق عليه في الكتاب، لأنه طفل والكتاب خير من البيت، واحتمله يدرس في "جامع الشيخ" لأنه كان يرجو في ابنه أن يكون شيخًا معمما وعالما مفخما، يتقرب إلى ا بتقبيل يده والتمسح بثوبه. فأمـا هـذا اللغو الفارغ الذي يسمى شعرا ونثرا فهو عبـادة الشـيطان لا عبادة ا ، ولست أتقرب إلى ا بالإنفـاق علـى عبـدة الشياطين.

لقد نفض أبوه يده منه، فأخذ عبد ا نديم يبحث عن وجه للكسب، فاتجه اتجاها غريبا، هو أن يـتعلم فـن الإشـارات التلغرافية ثم يتكسب منه، وكذلك كـان. فتعلمـه واسـتخدم بمكتب التلغراف ببنها.

ثم نقل إلى مكتب القصر العـالي حيـث تسـكن والـدة الخديوي إسماعيل، وقد كان قصرا من أفخم القصور، يقـع على النيل فيما يسمى الآن "جـاردن سـيتي" خـدم وحشـم

---

(١) مرصى: كلمة: إعجاب بمن أصاب المرمى.

وموسيقى وطرب، وما شئت من ألوان النعيم والترف، وقـد تعلم منه عبد ا نديم كيف يعيش الأمراء والسادة، كما تعلـم في بيته وحارته في الإسكندرية كيف يعيش الفقراء والعبيد.

وعاد إليه في القاهرة شوقه إلى الأدب ومجالس الأدبـاء، وكان حظ القاهرة في ذلك أوفى، ففيها – مـثلاً – مجلـس محمود سامي البارودي، وكان مجلسا عامرا يسمر فيه السمر اللذيذ: فأدب قديم يعرض، وأدب حديثـه ينشـد، وعـرض للمعنى الواحد صيغ صياغات مختلفة، ونقد قيم لهذا ولـذاك، يتخلله نوادر فكهة، وأحاديث في الأدب حلوة. اتصل عبد ا نديم بهذا المجلس وأمثاله، وتوثقت الصلة بينه وبين كثير من أدباء مصر إذ ذاك، وأخصهم سبعة، أولع بهم واستفاد مـن معارفهم وأدبهم: شاعر مصر محمود سامي البارودي، وشيخ الأدباء عبد ا باشا فكري والسيد علي أبو النصـر البليـغ الشهير، ومحمود صفوت الساعاتي، الواسع الاطلاع، الكثير المحفوظ، المتفتن في الطرائـف الأدبيـة، والشـيخ أحمـد الزرقاني الكاتب الأديب، ومحمد بك سعيد بن جعفـر باشـا مظهر الشاعر الناثر، وعبد العزيز بك حافظ عاشـر الأدب والأدباء الأدب والأدباء الكريم الوفي.

وكان الذي أرشده إلى هؤلاء الأدباء وعرفه بهم، وأحكام الصلة بينه وبينهم، الشيخ أحمد وهبي أحد المولعين بالشعر، الناظمين له، والمحرر بالوقائع المصرية في بعض أيامه.

فأتم على هؤلاء وأمثالهم دراسته، وشرب مـن مـنهلهم، وارتوى من ينابيعهم، فهو فـي النهـار تلغرافـي، يتقبـل الإشارات ويرسلها، وبالليـل أديـب يتقبـل نمـاذج الأدب ويحاكيها.

ولكن لم يمهله الحظ، فقط غلط في عمله في القصر العالي غلطة سببت غضب خليل أغا عليه. ومن خليل أغا؟ هو كبير أغوات الوالدة (أم إسماعيل)، وكان القصر مملوءا بالأغوات، يقومون بشئون القصر، ويستقبلون المدعوات ويصـحبونهن إلى باب الحريم، ونال كبيرهم خليل أغا من النفوذ ما لم ينله ناظر النظار ولا الأمراء والوجهاء، ولحظوته عند الخـديوي إسماعيل ووالدته، وإشارته حكم، وطاعته غنم، يخضـع لـه أكبر كبير، ويسعى لخدمته أعظم عظيم، رأيـه نافـذ فـي الدواوين والمصالح، يتحكم في مصر والسـودان، ويـأتمر بأمره كبار الموظفين والأعيان، حاز الثروة الضخمة والجاه العريض، كأنه كافور الأخشيدي في أيامه، حتى إنه لما عقد

عقد زواج الأنجاب في القصر العالي حضره النظار والعلماء وكبار الأعيان، فكان يرأس الجميع "خليل أغا". كـان مـن خصاله أن يذبح ويسبح، ويغصب ويبني مدرسة.

فما عبد ا نديم إذا غضب عليه خليل أغا العظيم؟! إذا غضب عليه خليل أغا فصل من وظيفته، ولكن إذا غضب عليه خليل أغا ضرب وطرد، وضاقت عليه الأرض بما رحبت.

سدت في وجهه أبواب الرزق في القاهرة كما سدت فـي الإسكندرية، وانتهى به الأمر إلى أن ينزل على عمـدة مـن عمدة الدقهلية يقيم عنده ويعلم أولاده، ثم ما لبث أن تخاصـم مع العمدة، فأما العمدة فيرى أنه آكله وأسكنه مقابـل تعلـيم أولاده، وأما عبد ا نديم فيرى أن هذا حق الضيف ويبقى له أجر التعليم، واختلفت وجهة النظر، وتشادا ثم تسابا، وغلـى مرجل عبد ا نديم، فكان ذلك نعمة على أدبـه إذا انفجـر المرجل وتدفق عبد ا نديم يصوغ في هجاء العمـدة أدبـا لاذعا، تدفعه عاطفة حادة، فعرف نفسه أديبا وعرفـه مـن حوله لسنًا يملك ناصية القول.

واتصل أمره بعين من أعيـان المنصـورة ذي مـروءة فاستدعاه وأكرمه، وفتح له دكانًا يبيع فيه المناديل وما إليها، فاتخذ دكانه متجرا للمناديل ومجمعا للأدب، يجتمع فيه بعض أصحابه يتذاكرون الأدب، ويتناشدون الأشـعار، ويتبـادلون النوادر. وبين هذا وذاك تأتي شارية لمنديل أو شار لعصابة.

وكانت هذه العادة فاشية في المدن، فقد يكون التـاجر ذا ثقافة فقهية وأدبية فيتخذ أصحابه من دكانه مكانًا للبحث فـي الفقه أو الحديث في الأدب، إذا لم تكن قـد غزتنـا المدنيـة الأوربية فعلمتنا التخصص، وأن مكان التجارة للتجارة فقط، وأما الحديث في العلم والأدب فله مكان آخر. وقد أدركنا أول زماننا شيئًا من هذا، فكانت بعض الدكاكين مدارس، وخاصة في الأدب، لأن الأدب لم يكن يدر رزقًا، إنما هو فن للمتعة، وكثير من أدباء عصر عبد ا نديم كان من هـذا الطـراز، فحسن أفندي عبد الباسط – الأديب الشاعر الهجاء – كان في بعض أيامه يفتح دكان عطارة في الزقازيق، ويجتمع به فـي دكانه أدباء الزقازيق وظرفاؤها، والشيخ أحمد وهبي الشاعر الأديب كان له دكان طرابيش بالغوريـة، وكانـت مجتمـع الأدباء والشعراء، ولكن أكثر هؤلاء لم ينجحوا في تجـارتهم

فالأديب فنان، والفنان – في الغالب – سمح يقدر الذوق الفني أكثر مما يقدر الدرهم والدينار، والتجارة تحتاج إلى الضـبط والدقة، والعناية بالإيراد والصرف، والفنان – عادة – طليق لا تطيق نفسه القيود والحدود. وعلى كل حال وجد عبـد ا نديم بعد برهة دكانة وليس فيها مناديل ولا جوارب، ولكـن جماعة يتناشدون الأشعار، ويستهلكون ولا يغلـون، فـأغلق دكانه وطوف بالبلاد ينزل ضيفًا على هواة الأدب، إلـى أن نزل بطنطا، وصادف مولد السيد، فكانت له حادثـة ظريفـة لفتت إليه الأنظار وشهرته بين الناس.

وكانت البيوت أعظم شأنًا من الدكاكين في أنهـا مجتمـع الأصدقاء من ذوي العلم والفن يسمرون فيها السـمر اللذيـذ ويتحدثون الحديث الظريف، هذا بيته منتدى الأدباء وهذا بيته مجموع الفقهاء، وهكذا كل رجل يعرف مكانـه مـن هـذه البيوت على حسب ذوقه وميله، ويكثر ذلك في طبقة الأوساط والأغنياء من ذوي الميل العلمي والفني. وأدركت في حارتنا المتواضعة ثلاث بيوت من هذا القبيل، كان صاحب أحـدها قاضيا شرعيا كبيرا، فكان بيته منتـدى الفقهـاء والعلمـاء يتسامرون عنده في الدين والفقه، والثاني موظفًا ظريفًا يسمر

عنده أصحابه بالأخبار والفكاهات، ليلة يدعون قارئًا جميـل الصوت، وأحيانًا فكها حسن الحديث، والثالث دفافًا يضـرب على الدف في الأفراح، فكان عنده كثير مـن هـواة الآلات الموسيقية، يحيون عنده الليالي الملاح حتى الصباح. فما بالك بالموسرين إذا شغفوا بأدب أو علم أو فن، وكـانوا كرامـا يفتحون بيوتهم للهواة من أمثالهم، يجدون فيها الطعام الشهي والفن الشهي؟!

كان بيت شاهين باشا كنج بطنطا – وهو مفتش الوجه البحري إذا ذاك – من هذا القبيل، كرم حاتمي، وذوق أدبي، وظرف نواسي، فتعرف به عبد ا نديم، فوجد فيه شاهين باشا قبح منظر، مع طلاقة لسان، وخفة روح، وسرعة بديهة فغطى ذلك على قبح منظره، واتخذه له نديما.

- ٢ -

كان مرة يجلس في قهوة أيـام المولـد الأحمـدي سـنة ١٢٤٩هـ ومعه طائفة من أصحابه، ومنهم علي السيد علي أبو النصر الشاعر، والشيخ أحمد أبـو الفـرج الـدمنهوري الأديب الماجن، قطع عليهم اثنان من "الأدباتية".

والأدباتية طائفة من الشحاذين يستجدون بـأدبهم العـامي وطلاقة لسانهم في الشعر، وحضور بديهتهم، عرفوا بالإلحاح في الطلب، فإذا رددتهم أي رد أخذوا كلمتك على البديهـة، وصاغوا منها شعرا يدل علـى اسـتمرارهم فـي طلـبهم، واستغواء ممدوحهم، وقد جمعوا إلى طلاقة لسانهم وحضور بديهتهم منظرهم المضحك في ملبسهم وحركـاتهم، فـزرج خارج العمامة، وطبلة تحت الإبط، وحركات يدور معها رز العمامة كأنه نحلة، وتحريك لعضلات وجوههم كأنهم قـردة، وسموا "أدباتية" جمع "أدباتي" وهي لفظ سخرية لأديب. فمـر هذان الرجلان من طائفة "الأدباتية" على الحاضـرين حتـى وصلا إلى عبد ا نديم، فقال أحدهما:

أنعم بقرشك يا جندي   وإلا اكسبنا أمال يا أفندي
أحسن أنا وحياتك عندي   بقى لي شهرين طوال جوعان

فأجابه عبد ا نديم على البديهة:

أما الفلوس أنا مديشي   وأنت تقول لي ما مشيشي
يطلع علي حشيشي   أقوم أماص لك لودان

فرد "الأدباتي"، ورد عبد ا نديم، وظلا كذلك نحو ساعة، غلب "الأدباتي" فانصرف مهزوما.

ونقل السيد علي أبو النصر القصة إلى شاهين باشا كنج، فاستظرفها جدا، وخطرت له فكرة طريفة أيضا أن يقيم حفلاً عاما، يدعو فيه كبار "الأدباتية" والزجـالين ويـدخلون فـي مساجلة مع عبد ا ندیم، فيكون منظـرا لطيفًـا، ومحفـلا طريفًا. ففعل ونصب سرادقًا أمام بيته، وأحضر رؤساء هـذا الفن، وشرط عليهم أنهـم إن غلبـوا كافـأهم، وإن غلبـوا ضربهم، فرضوا، واستمرت المساجلة نحو ثلاث سـاعات، غلب فيهم النديم، فكانت الحادثة سبب شهرته بـين الأدبـاء والظرفاء.

لقد أخذ بعضهم عليه – فيما بعد – هذا الحادث وعيروه به، وقالوا إنه رضى أن يقف موقفًا يساجل فيه المستجدين، وأن يكون "أدباتيا" مثلهم، ينازلهم، ويغالبهم على ملأ [1] من الناس، فمثله مثل المصارعين أمام "الزفة" ولا يرضى لنفسه هذا الموقف إلا وضيع النفس ساقط الهمة.

---

(١) ملأ: جميع من الناس.

والحق أن وضع المسألة هذا الوضـع فيـه كثيـر مـن التزمت[1] والتعنت، كالذي تعرض على مسـامعه الفكاهـة الحلوة فينتقد فيها خطأ نحويا أو لفظًا لغويـا، وكمـن ينتقـد الشيخ الوقور على ما كان منه أيام الصبا، والغنـي الواسـع الثراء على ما كان منه أيام البؤس والشقاء، فالمسألة لم تعـد أن تكون طرفة لطيفة، وفكاهة ظريفة، وقوانين الظرف تبيح من البحبحة في مجالسه ما لا تبيحه مجالس الجد والوقار.

أخيرا عاد إلى مسقط رأسه بالإسكندرية سنة ١٨٧٩ م في نحو الخامسة والثلاثين، وهو أكثر خبرة بالدنيا فيما لقي من عظماء ووجهاء وأدباء، وفيما رأى وسمع وعمل في القصر العالي أيام كان موظفًا في تلغرافه، في التجارة أيام تاجر وأفلس، وبأخلاق الفلاحين أيام كان يعلم أولاد أحد "عمدهم"، ولكنه دخلها كما خرج منها صفر [2] (اليدين).

عاد فرأى في الإسكندرية منظرا جديدا لم يكن أيام كـان بها كانت المجالس الأدبية يوم فارقها تتحدث في غزل أبـي

---

(١) التزمت: التخرج والتوقر.

(٢) الصفر: الخالي.

نواس، ووصف البحتري، وهجاء ابـن الرومـي، ومـديح الشعراء في إسماعيل، وفكاهات الشيخ الليثي، فإذا انتقلوا من ذلك فإلى من عارض شعر هؤلاء من المحدثين، وما أنشـأه الناشئون من سمار المجالس في مثل هذه الأغراض، ولما عاد إليها وجد المجالس تتحدث في حالة البلاد ووقوعها في أسر الدين، وفي الدول وتدخلها، ورأى جمعية سرية تسمى "مصر الفتاة" يجتمع أعضاؤها فينتقدون هـذا كلـه فـي صـراحة وحماسة، والأدب يتحول فيأخذ شـكل الكـلام فـي الأمـة ومصالحها، وآلامها، ويحتل ذلك مكان غزل أبـي نـواس، وشعر صريع الغوني، والنفوس بفضل تعاليم "جمال الـدين الأفغاني"، وصحبة ثائرة تتطلع إلى نوع من الأدب غير الذي كان، وتجد غذاءها في الصحف السياسية والمقالات النقديـة، فيشتغل في الصحافة من هذا النوع "أديب إسـحاق" و"سـليم نقاش" في جريدتهما "مصر" و"التجارة"، ويمدهما جمال الدين وتلاميذه بمقالاتهم وإرشاداتهم.

فأعد عبد ا نديم نفسه للأدب الجديد والمطلب الجديـد، وانغمس في هذا التيار، وحول قلمه في هذا الاتجاه، يمد هذه الصحف بمقالاته في مثل هذه الموضوعات؛ فلقي من النجاح

ما لفت إليه الأنظار، وكان له فضـل كبيـر فـي إدراك أن الكتابة في الموضوعات السياسية إنما يتناسبها أسلوب متدفق سريع مرسل لا يقيده السجع إلا قليلًا، لينسجم وحركات النفس المتحمسة الثائرة.

وفكر مع بعض أصحابه من أعضاء جمعية "مصر الفتاة" أن يحولوها من جمعية سرية إلى جمعية علنية، تعمل جهارا في الأعمال المشروعة، وجد هو وصحبه يجمعون المال لها من أعيان الإسكندرية، وسموها الجمعية الخيرية الإسـلامية (وهي غير الجمعية القائمة الآن بهذا الاسم). وكان من أهـم أغراضها إنشاء مدرسة تعلم الناشئة على نمط غيـر الـنمط الجاف الذي تسير عليه مدارس الحكومة إذ ذاك، فيضـيفون إلى تعليم مبادئ العلوم بث روح الوطنية والشعور القـومي في الأمة، وقد كان هذا غرضا جديدا دعـا إليـه الشـعور القومي الذي كان في طور التكون.

وتم ذلك كله فجمع المال، وأنشئت المدرسة وجعل عبد ا نديم مديرها، وافتتحها بخطبة رن صداها في الثغر، وكـان ذلك في أواخر أيام إسماعيل، وأقبل عليها كثير مـن أبنـاء الفقراء والأيتام، ووضع لها برنامج يحقق الغرض، وتكفـل

هو بتعليم الإنشاء فيها والأدب، وأخذ يمـرن الطلبـة علـى الخطابة والتمثيل، وعلى الجملة نفخ فيها من روحه، ولعلهـا أول جمعية مصرية إسلامية في مصر أسسـت لمثـل هـذا الغرض.

ثم وثق الصلة بين المدرسة والقصر، وكـان الخـديوي إسماعيل قد عزل وحل محله الخديوي توفيق، فتقرب النـديم إليه واستزاره المدرسة فزارها، ورجا منه أن تنسب الرياسة لولي عهده "عباس"، فقبل وأغرم بتعليم التلاميـذ الخطابـة، فكان ينتهز كل فرصة لإقامة الحفلات يخطب فيها، ويحضر الخطب لتلاميذه ليخطبوها، ثم يمرنهم أن ينشـئوا الخطـب لأنفسهم، ويصلح خطأهم ويرشـدهم، فأسـس بـذلك نخبـة يحسنون التحرير، ويحسنون القول. ولم يكتف بـذلك، بـل خرج بالمدرسة على ميدان الحياة العامة، فكان يحضر بعض الروايات التمثيلية في نقد بعض العيوب الاجتماعية، ويمثلها هو وتلاميذه في بعض الملاهي العامة، من ذلك أنـه أنشـأ روايتين اسمهما "الوطن وطالع التوفيق" و"العرب" ومثلهمـا في "تياترو زيزينيا" حضرهما الخديوي توفيق، ونجح فيهمـا نجاحه أعلى ذكره.

ولكن ظهر فساد في الجمعية نسبوه إليـه، ففصـل مـن المدرسة ومن الجمعية.

عند ذاك اتجه إلى إنشاء صحيفة، وحبب إليه ذلك سـابقة اتصاله بصحيفتي أديب إسحاق وسليم نقاش، ومرانته علـى الكتابة فيهما، وشعوره بأن الناس أعجبوا بما كتب، وأنه كان يكتب فيستغل أصحاب الصحف مقالاته مـادة ومعنـى فـلا يؤجرونه على ما كتب، وكثيرا ما يضنون عليه حتى بـذكر اسمه في ذيل مقالاته، بل يتركون القارئ يفهم أنها لهم ومن إنشائهم.

فأخرج صحيفة سماها "التنكيت والتبكيت" وفي هذا الاسم دلالة على غرضه وأسلوبه، فهو يرمي إلى تأنيب المصريين على ما وصلوا إليه، في أسلوب قد يكون لاذعا وقد يكون مضحكًا.

وظهر العدد الأول منها في ٦ يونية سنة ١٨٨١، ودعـا فيه الكتاب أن يوافوه بمقالاتهم ونتاج قرائحهم علـى الـنهج الذي رسمه: كونوا معي في المشرب الذي التزمته، والمذهب الذي انتحلته، أفكار تخيلية، وفوائد تاريخية، وأمثال أدبيـة، وتبكيت ينادي بقبح الجهالة، وذم الخرافات، لنتعـاون بهـذه

الخدمة على محو ما صرنا به مثله [1] فـي الوجـود، مـن ركوب متن الغواية، واتباع الهوى اللـذين أضـلانا سـواء السبيل".

وفي الحق أن هذه الصحيفة كانت عجبا في موضوعاتها وأسلوبها.

انظر العدد الأول: تجد تنكيتا وتبكيتا لأكبر المصائب التي كان يحسها ذلك العصر: مقال عنوانه "مجلس طبي لمصـاب بالإفرنجي"، وهي قصة شاب صحيح البنية، قوي الأعصاب، جميل الصورة، لطيف الشكل، في رقة ألفاظ وعذوبة كـلام، وفي عزة ومنعة لا يشاركه فيها مشارك، يلتف حوله أهلـه يعززونه ويؤازرونه حتى لا تمتد إليه يد عـدو، ولا حيـل محتال. وبينما هو في ذلك تسلل إليه أحد الماكرين يتظـاهر بالصلاح والتقوى، ويضمر الختل والغدر، فأسلمه إليه أهلـه انخداعا به. فعرضه هذا الماكر على الأسـواق يريـه مـن الغواني من تعارض الشمس بحسنها، وتكسف البدر بنورها، فمانع حينًا، ولكنه رأى أهل بيته وقعوا في مثل هذه الغواية،

---

(١) المثلة: ما حدث لقوم من عذاب يكونون به عبرة لمن بعدهم.

وانغمسوا في مثل هذه الضلالة، فسار سيرهم، وترك النفـار والآباء، وسار في الطريق الذي رسمه المنافق الخادع، فمـا سار فيه حتى أصيب بالداء الإفرنجي (الزهـري) فاصـفر وجهه، وارتخت أعضاؤه، وذهبت بهجته، غـارت عينـاه، وتشوه وجهه، وتبدلت محاسنه بقبائح تنفـر منهـا الطبـاع، وتمكن الداء منه، وسرى في دمه وعروقه، فصـار يقلـب طرفه لعله يجد من قومه من ينقذه من مرضه.

واجتمع الأطباء من قومه يفحصون الجسم، ويشخصـون مرضه، ويقفون على أصله، ويركبون الدواء ليقف سـريان الدواء، ويتعلق بهم أهل المريض يسـألونهم الإسـراع فـي معالجته: والاجتهاد في دفـع مصـابه، فطمـأنهم الأطبـاء ونصحوا لهم بالهدوء والتحرر ممن كانوا السبب في الدواء. حتى لا يفسدوا العلاج، وابتدءوا يعملون بمشـورة الأطبـاء ويبذلون الجهد في معالجته.

وواضح أن هذه قصة رمزية، أرد أن يصور فيها شعور الناس في هذه الفترة بعد ما كان من الإسراف، ووقوع مصر في الديون الباهظة، وتدخل الدول الأجنبية، من مراقبة ثنائية وإنشاء صندوق الدين، وما إلى ذلك، كما يصور بهـا ألـم

الناس من هذا المرض الإفرنجي، وأملهم فـي النجـاة منـه يسعى عقلائهم، وتفكير أولي الرأي فيهم، كل ذلك في أسلوب روائي مفهوم.

قد كانت هذه المسألة هي صـميم المسـألة المصـرية، ومشكلتها الكبرى، فبدأ بها على هذا النحو، وعالجهـا هـذا العلاج، وكان بارعا في التورية بكلمة "الداء الإفرنجي".

ويلي ذلك مقال في "عربي تفرنج" يصف فيه شـابا مـن صميم الفلاحين، تعلم في مصر، ثم في أوربا، وعـاد إلـى بلاده يسفه أباه لما قابله على المحطة وقابلـه كيـف يقبلـه، ويطالبه أن يسلم عليه بيديه فقط، ويكتفي أن يقول لـه "بـن أريفيه" وينسى لغته، حتى اسم البصل، فهو لا يعـرف إلا أن اسمه "أونيون" – ويختم هذا بالمغزى من القصـة، وهـو أن لا أمل في مثل هؤلاء إلا إذا حـافظوا علـى لغـة قـومهم وعاداتهم، وصرفوا علومهم في تقدم بلادهم.

ثم يقص قصة موسرين اجتمعوا في بيت أحـدهم، دخـل عليهم فوجدهم ساهمين [1] لا يتكلمون ولا يتحركون، فظنهم

(١) ساهمين: عابسين.

يفكرون في أمر خطير شغل أذهانهم، وعقد لسانهم، كتفكيرهم في تقدم الصنائع في أوربا، وكيف يفعل ذلك في مصر، أو يفكرون فيما يزيد ثروتهم، ويضمن التقدم في عملهم، ثم يتبين بعد ذلك أنهم إنما اجتمعوا لتعاطي الكيف"[1]، وقالوا ما لنا وللدنيا وما جرى فيها، وما لنا وللصحف والتلغرافات، ونحن بحمد ا في غنى عظيم، عندنا الخدم الذين يقومون بأعمالنا، وخلف لنا آباؤنا من المال ما لا تفنيه الأيام – فلا نخرج من بيوتنا إلا للمسامرات بالمضحكات والنكات اللطيفات.

ثم قصة ترمي إلى نقد ما كان يجري بين العامة من اجتماعهم في القهوة، وسماعهم للقصاص (الشاعر)، انقسامهم إلى معسكرين، متعصب لعنترة، ومتعصب لزغبة، وما كان أحدهم – وقد ختم القصاص الليلة بوقوع عنترة أسيرا – إذا ذهب إلى ابنه وأيقظه من نومه وأمره أن يقرأ في الكتاب حتى يخلص عنترة من الأسر، وإلا مات كمدا، فلما لم يطعه

---

(١) "الكيف": المخدر.

ابنه، وأفهمه أن هذا تخريف في تخريف، نزل عليه بعصـاه حتى أدماه، والجنون فنون.

ويلي هذه قصة تمثل الفلاح الجاهل، المرابـي المـاكر؛ إذ أراد الفلاح أن يقترض منه مائة جنيه، فأعطـاه سـبعين، وكتب عليه "كمبيالة" بمائة وعشرين وحسبها كما يأتي: المائة فائدتها عشرون، تخصم في المائة فيكون فيه الباقي سـبعين، وتضم الفائدة فيكون عليه مائة وعشرون، ويقتنع الفلاح بذلك لجهله بأبسط مسائل الحساب، ثم يقدم الفلاح للمرابـي قطنًـا وقمحا ثمنها الحقيقي ١٢٥ جنيها، يحسبهما المرابي بأربعين، ويغالطه أغلاطًا مضاعفة حتى يجعله مدينًا بمـائتي جنيـه وعشرة، كل ذلك والفلاح في غفلة لا يدري ما يصنع بـه – فإذا عوتب المرابي على ذلك قال: ماذا أصـنع! إن الفـلاح حمار، وأنا أريد أن أكون غنيا كبيرا في خمس سنين!

ثم قصة غني كبير بنى بيتًا فخما، وأثثه أثاثًا بديعا، وكان من أثاثه مكتبة كبيرة، فلما أتم ذلـك كلـه عرضـه علـى الزائرين، فسأله أحدهم عن المكتبة وما يحوي، ليعـرف أي نوع من العلوم والفنون يهوى، فقال الغني صاحب البيت: لقد دخلت بيت فلان وفلان فرأيت في مضيفة كل منهم خزانـة

كتب عليها ستارة خضراء وبجانبها منفضـة مـن الـريش، والخادم كل يوم ينفضها ويسمح الزجاج الخزانة، فعلمـت أن هذا طراز جديد في بناء البيوت وتأثيثها، فقلدتهم في ذلـك، ولا علم لي بعلم أو فن. "وهكذا أصبح الكل نائما في غفلـة التقليد".

* * *

نعم، هذا كله في العـدد الأول مـن صـحيفة "التنكيـت والتبكيت"، نقد للسياسة العامة للبلد، ونقد للعيوب الاجتماعية الخاصة. كل ذلك في أسلوب يسترعي الانتباه، فقـد التـزم اللغة البسيطة السهلة عن تفكير وروية، فقال في فاتحتها: "إنه لا يريد منها أن تكون منمقة بمجارات واستعارات، مزخرفة بتورية واستخدام، ولا مفتخرة بخامة لفظ وبلاغـة عبـارة ولا معربة عن غزارة علم وتوقد ذكـاء، ولكـن أحاديـث تعودناها، ولغة ألفنا المسامرة بها لا تلجـئ إلـى قـاموس الفيروز أبـادي، ولا تلـزم مراجعـة التـاريخ، ولا نظـر الجغرافيا، ولا تضطر لترجمان، يعبـر عـن موضـوعها، ولا شيخ يفسر معانيها، وإنما هي فـي مجلسـك كصـاحب

يكلمك بما تعلم، وفي بيت كخادم يطلب منك ما تقدر عليـه، ونديم "يسامرك بما تحب وتهوى".

ثم هو يدرك أن في الناس خاصة وعامة، وكل يجـب أن يقصد إلى تغذيته بالأدب، وأشعاره بوجوه النقد، لذلك يختـار موضوعات الخاصة فيكتبها باللغة الفصحى كموضوع "الداء الإفرنجي" فهو موضوع دقيق لا يقدر قدره إلا الخاصة، أما الفلاح والمرابي وسماعوا القصاص فمكتوبة للعامة، فيجـب أن تكتب بلغتهم العامية، وهو في اللغة العامية مـاهر كـل المهارة، ويعرف أمثالهم وأنواع كلامهم، ويضع على لسـان الخادم والسيد والمرأة والرجل، والفقير والغنـي، والمـاكر والمغفل، وما يليق به، في دقة أحكام وظرف.

ثم هو قد فطن لشيء جليل القدر، وهو أن التعليم والنقـد من طريق القصص أجذب للنفس وأفعل في النقد، فأكثر منه بل كاد يتلازمه.

لذلك كله نجح في صحيفته، ووصل نداؤها إلى أكبر عدد ممكن، فمن كان قارئًا قرأ، ومن لم يكن قارئًا سمع ففهم.

ولم يكتف بذلك، بل نراه في عدد تال يلتفت التفاتـة لهـا خطرها في الإصلاح السياسي والاجتماعي، وهي أن من أهم

بين أسباب غفلة الشرق ضعف الخطابة، واقتصارها – تقريبا – على خطب المساجد، وهي خطب لا تمس الحياة الواقعة بحال من الأحوال، وإنما هي عبارة دينية محفوظة، ومعان متكررة مألوفة، لا تحرك قلبا ولا تضيء حياة.

فكتب مقالاً قويا في قيمة الخطابة وأثرها في تاريخ الإسلام، ودعا إلى أن يحضر خطب المساجد أعرف الناس بشئون الحياة، وأقدرهم على التأثير، وأن تشرح هذه الخطب الموقف الحاضر في وضوح، وتبين الأخطار المحيطة بالأمة في جلاء، وأن يتبرع القادرون بقدر من المال يخصص لهذا الغرض، ويتفقوا مع ديوان الأوقاف ليسمح بإلقاء هذه الخطب في المساجد، ثم تطبع وتنشر في أنحاء البلاد، ليصل صداها إلى كل قرية وبلدة، وأعلن استعداده للاشتراك في إعدادها، ووضع خطبة نموذجية توضح غرضه، تتضمن المحافظة على حقوق البلاد والنهي على الظلم والبغي، والدعوة إلى الائتلاف لمواجهة الأخطار التي تظهر دلائلها في الأفق، والاتحاد مع المواطنين ما غير نظر إلى اختلاف الدين، والتذكير بمجد مصر السابق، والالتفاف حول الخليفة والخديوي، والتحذير من تمكين الأجنبي من وضع يده على

سياسة البلاد، والتحرز من إتيان عمل يتخذه وسيلة لتدخلـه ومعاملة النزلاء الأجانب بالحسنى، ومن حفظ حقوق تجارتهم وعدم الإساءة إليهم.

هذه هي المعاني التي رأى أن الحاجة ماسة إليها في ذلك الوقت (في أول حكم الخديوي توفيق قبيل الثورة العرابيـة)، صاغها صياغة دينية تناسب صلاة الجمعة فبدأها بالحمد ، والثناء على رسوله، وختمها بالحديث الشـريف: "المـؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا". – وقد حقـق "الراديـو" أخيرا فكرة عبد ا نديم في إذاعة الخطبة شكلاً، ولكن لمـا تتحقق فكرية موضوعه.

وانتهت هذه الصحيفة على هذا الموضوع.

- ٣ -

لم يكن في مصر إلى أواخر عهد الخديوي إسماعيل رأي عام يشعر بظلم، وإن شعر فلا ينطق، لأن عنف الاسـتبداد أزمانًا طويلة أمات الشعور وأخرس الألسن حتـى تـدخلت الدول الأجنبية في شئون مصر المالية، فبدأ الشعور يتنبـه، وغذاه الخديوي إسماعيل نفسه وجرأه، لإحساسه بثقل التدخل

وخشيته من عاقبته، فأول معارضة من مجلس شورى النواب للحكومة كانت بإيعاز منه، ولولا ذلك لم يجـرؤ ومظـاهرة الضباط ومهاجمتهم لنظارة المالية لتـأخير رواتـبهم كانـت بتدبيره ليتخلص من وزارة نوبار التي تمالئ [1] الأجانب في هذا التدخل، واجتماع أعيان البلاد في دار السـيد البكـري، ووضعهم للائحة الوطنية – التي تعهدوا فيها بوفـاء ديـون أوربا وضمانها وعدم تدخل ممثليها في شئون البلاد – كانت فكرة بناها الخديوي في أذهانهم، وكان هذا أول مـا شـعر الناس بقوتهم وحاجة الحاكم إليهم، ونبه الرأي العام إلى أنـه يستطيع أن يقف الظلم ويطالب بـالحقوق. وأن مـن حقـه مراقبة الولاة والحكام ورفع صوته بنقدهم، وهذا الشعور إذا وجد في أمة كان لا بد له من قادة يشعرون شعور النـاس، ويصوغونه صياغة قوية يلهبون بها شـعور مـن شـعر، وينبهرون بها من لم يشعر، لكان ذلك في السيد جمال الـدين ومدرسته، وجاء الخديوي توفيق ونـواة الـرأي العـام قـد غرست، وتتابع الأحداث الخطيرة يغذيها وينميها والنفـوس

---

(١) تمالئ: تناصر.

مستبشرة بتوليته، فقد كان سمحا رحيما، وكان قبـل عـزل إسماعيل يتصل بالسـيد جمـال الـدين ويحبـذ آراءه فـي الإصلاح، فلما تولى قربه إليه وقال له: أنت موضع أملي في مصر، ودعا شريف باشا لتشكيل الوزارة، "وصرح برغبتـه في تحقيق آمال الأمة، وإخراجها من الحالة السيئة التي هـي فيها بالاقتصاد في نفقات الحكومة، والاستقامة في الوظـائف العامة وإصلاح القضاء والإدارة، وتوسـع نظـام شـورى القوانين وإصلاح المحاكم والمجالس، والسعي لتعميم التربية والتعليم، وتوسع دائرة الزراعة والتجـارة، ومـنح الحريـة للعاملين في أعمالهم".

ففرح الناس وتهللوا لهذه الوعود القيمة وتفتحت آمـالهم، ولكن الحكم الشورى لم يرض طوائف كثيرة – لـم يـرض الحاشية، وكان السيد جمال الدين أشار على الخديوي توفيـق بتغيير حاشية إسماعيل، فأغضبهم عليه. قال الشـيخ محمـد عبده: "ووكيل دولة فرنسا أخذ يسعى في إقامة الموانـع دون إعطاء حق النظر في تصحيح الميزانية، وتقريـر الأمـور المالية، ودعا وكيل إنجلترا إلى مساعدة في إقناع الخـديوي بضرر هذه الأوضاع الجديدة" فتغير رأي الخديوي توفيق في

ذلك كله؛ فاستقال شريف باشا ونفي السـيد جمـال الـدين، وأخذت الأمور مجرى آخر كان سببا من أسباب الثورة.

ثم جاءت وزارة رياض باشات بعد وزارة شريف، وفـي تاريخ مصر الحديثة كان شريف باشا دائمـا رمـز الحكـم الشورى، ورياض باشا رمز الحكم الاستبدادي، وكلاهما كان يلتف حوله كثير من الخاصة، فحول شريف جماعة ترى أن الحكم الشورى هو الوسيلة الوحيدة لإنقاذ البلاد من الفوضى، والأمل الوحيد في وقف كل سلطة عنـد حـدها، والباعـث الوحيد للأمن والحرية في نفوس الأفـراد، وحـول ريـاض جماعة ترى أن الحكم الشورى لا يصلح إلا إذا نضجت الأمة وعرفت شئونها ومجاري السياسة حق معرفتها، ورزقت من الشجاعة في القول والجد في العمل قدرا صالحا، وإلا كـان الحكم الشورى نقمة، والأمة لم تبلغ هذا الحد، وكان الجـدال والنزاع يدور على الفكرتين في الصحف والمجالس، علـى كل حال، فقد كان هذا درسا لتنوير الرأي العام في السياسة، وتفتيح الأذهان للنظر في المسائل العامة.

وكانت شخصية رياض شخصية معقدة – ذكـي، خبيـر بالإدارة، قوي العزيمة صبور على العمل، معتـز بنفسـه،

لا يرى بجانب رأيه رأيا، إذا وثق بشخص لم يسمع فيه قول قائل، وإذا أساء الظن بإنسان فإلى النهاية، نزيه، يحب الخير لمصر، ولكن حسبما يرى هو وبالطريقة التي يراها، قليـل الثقة بالمصريين ممتلئ عقيدة بأنهم مملؤون عيوبـا، كبيـر التعظيم للأجانب، معتقد بقوتهم، يرى أنه لا يستطيع الحكـم إلا بالاعتماد عليهم أو على أقواهم، لا يرى بأسا من إغضاب الخديوي وإغضاب الأمة في سبيل إرضائهم، ومع ذلك يبذل أقصى جهده في أن ينال منهم أقصى ما يستطيع لخير أمته – شديد الحب للحكم لا تعتزله إلا مكرها. فكانت أخلاقه هـذه من عوامل التمهيد للثورة العرابية.

ألغى السخرة العامة كإقامة الجسور على النيـل، وحفـر الترع من غير أجر والسخرة الخاصة، كعمل الفلاحين فـي أرض سيدهم من غير مقابل، ونفذ ذلك فـي غيـر هـوادة، فأغضب بذلك الأعيان، وأعطى السلطة العامـة للمـديرين، فأساءوا السيرة، وضيق على الصـحف، وعطـل بعضـها، فعامل أصحابها سرا بعد أن كانوا يعملون جهـدا، وسـافر بعضهم إلى أوربا يصدر الجرائد في الطعن عليه، وعارض الخديوي في أن يمنح الرتب والنياشيين لمن يراهم أهلاً، كما

عارضه في كثير من رغباته فغضب الخديوي عليه، وعاقب "رياض" المدير الذي سخر الأهالي في حفر ترعـة خاصـة بالخديوي. وتصرف ناظر الحربية في وزارتـه تصـرفات أغضبت رجال الجيش المصريين، فطلب عرابي وأصـحابه تشكيل مجلس عسكري لتحقيق الشكايات، فمال رياض إلـى إجابة مطلبهم، ولكن أشيع عنه أنه هو الذي يمانع في ذلـك فغضبوا عليه – كل ذلك وهو لا يريد أن يتخلى عن الحكم.

تبلبلت الأفكار واضطربت، وكلها تتفق في وجوب تغييـر الحال، وإن اختلفت أسباب غضب كـل طائفـة، فالأعيـان يحبون رجوع سـلطتهم فـي تسـخير النـاس، والضـباط المصريون يريدون العدل بينهم وبين الشراكسة، وبعض ذوي الرأي يرون أن هذا كله تأييد لوجهة نظرهم في أنه لا يصلح الأمور إلا نظام الشورى والخـديوي نـاقم علـى ريـاض لخشونته، وبعض الأجانب لا يسرهم ما قام به رياض مـن ضبط الأمور المالية. كل ذلك هيأ للثورة العربية.

وتطورت مطالب العرابيين من عدل بين الضـباط، إلـى تغيير شكل الحكومة من نظام استبدادي إلى نظام شـوري، إلى التهييج على الخديوي توفيق إلى المناداة بعزله لالتجائـه

إلى الدول لحمايته، إلى الدعوة للجهاد في سبيل صد المغيرين. واتسعت الحركة، من حركة محصورة في الجند والضباط، إلى حركة وطنية واسعة تشمل العلماء والأعيان والتجار والزراع وغيرهم، واندس وسط الحركة من يعمل صالح أمير ليحل محل الخديوي توفيق، فجماعة تعمل لصالح الأمير حليم ابن محمد علي، ومن هؤلاء صاحب جريدة "أبو نضارة" ومنهم من يعمل لحساب الخديوي إسماعيل لإعادته، ومن هؤلاء راتب باشا السرادر، وهكذا.

في هذا الجو الذي صورناه صورة صغيرة جدا عمل عبد ا نديم، واحتضنه العرابيون، فكان خطيب الثورة وكاتبها ومشعلها.

اتخذ جريدة "الطائف" بدل "التنكيت والتبكيت"، ونقل مكانها من الإسكندرية إلى القاهرة، وبدأها عنيفة قوية، تنقد تصرفات الخديوي إسماعيل في جرأة بالغة، وتشرح بؤس الفلاحين في السخرة والعذاب المهين الذي يلقونه من الرؤساء، وما شاهده بنفسه من أحداث، وكيف يخر الناس قتلى من الجوع والبؤس، والإعياء والضرب، وكل رئيس يريد أن ينال حظوة من فوقه بالمغالاة في التعذيب.

وكان عبد الله نديم في هذه الصحيفة يعبر عن آراء النواب في ضرورة الإصلاح عن طريق الحكم النيابي، وقد كتب سلطان باشا رئيس النواب إلى إدارة المطبوعات أن تعتبر جريدة "الطائف لسان النواب المعبر عن أفكارهم، فاعترفت الإدارة بذلك، ونشر هذا رسميا بأمر نظارة الداخلية، ولكن لما رأت إدارة المطبوعات عنفه وتهييجه عطلته شهرا.

أصبح "الطائف" في الثورة العرابية لسان الدعاية لها، يقدم من عاداها، ويشجع من والاها، ويلقب "عرابي" بحامي حمى الديار المصرية، ويتطور بتطورها فينقد الأوروبيين وتصرفاتهم، وينقد الخديوي توفيق لارتمائه في أحضانهم، وفي أسلوب لاذع وتهكم ساخر، فإذا كانت الحرب نقل جريدة "الطائف" إلى المعسكر يحرض الجنود على القتال، ويحرض الشعب على تقديم المئونة، وينشر خبر التبرعات وكلما اشتد الأمر واشتد في تهييجه، وقد قلت صفحاتها لاشتداد الظروف: من أربع إلى اثنتين إلى واحدة، وهو يهرج في أخبار الحرب، فيقلب أخبار هزيمة المصريين إلى أخبار

انتصار، وانتصار الإنجليز إلى أخبار هزيمة، وظـل كـذلك حتى تمت الهزيمة، وتم التسليم.

هذا عمله في الصحافة، وإلى جانب ذلك كان عمله فـي الخطابة.

فقد طاف في كل مجتمع يخطب، وأعطى من ذلاقة اللسان ما يستدعي العجب، فما هو إلا أن يحرك لسانه حتى يتـدفق وتنهال عليه المعاني والألفاظ انهيالاً، وقد نشر في البلاد فن الخطابة، وعلم كثيرا من الناشئة أن يخطبوا فـي المحافـل، وأعطى لهم المثل بمقدرته وكفايته، وبدأ ذلك أيام كان يعلـم الإنشاء والأدب، في مدرسة الجمعية الخيرية في الإسكندرية. فلما أعلن الدستور في أول عهد توفيـق (٧ فبرايـر سـنة ١٨٨٢)، سرت في النفوس هزة فرح لا تقدر، وأمل النـاس أن الحكم النيابي سيصلح كل مفاسد الماضي، ويرسـم كـل وسائل السعادة للحاضر والمسـتقبل – واشـتاق النـاس أن يسمعوا الكلام الكثير في هذا الموضوع، فكان عبد ا نـديم وصحبه وتلاميذه الذين يغنون للناس بآمالهم، فأقيمت الحفلـة تلو الحفلة إليها النديم وفرقته ليخطبوا والنـديم هـو قطـب الرحى. يخطب أولاً، وكلما خطب خطيب وتناول موضـوعا

قام النديم بعده يعقب عليه، ويتخذ من كلامه موضوعا يطنب فيه، وفي هذه الحفلات يحضـر النظـار وكبـار الضـباط والعلماء والنواب والأعيان، فتطرب نفوسهم لهذا طربهم من عبده الحمولي ومحمد عثمان.

هذه حفلة تقيمها جمعية المقاصد يفتتحها "النديم" بقصـيدة، ثم يشكر الجمعية على احتفالها بالدستور، ويتلـوه إبـراهيم اللقاني فيبين الفرق بين عهد الاستبداد وعهد الشورى، فيعقبه النديم يكمل موضوع الفروق بين العهدين، ثم يقـوم الشـاب مصطفى ماهر – باشا فيما بعد – فيتكلم فـي الحـث علـى الاجتهاد في العلوم والفنون، ويستحث الأغنياء على إنشـاء بنك أهلي يحمي الأهالي من استغلال المرابين، ويختم ذلـك بالدعوة إلى الألفة والاتحاد، فيقوم بعده النديم يتكلم في هـذا الموضوع، ثم يقوم الشيخ محمد عبده فيبين مزايا الحكومـة النيابية، ويطالب بوجوب أن يكون النواب مـن المتعلمـين، ويحث على تعميم التعليم، وعلى احترام حرية القول والكتابة، وسن القوانين المبينة لحقوق الأفراد وواجباتهم، ويقوم "النديم" بعده معقبا على قوله، ثم يقوم أديب إسحاق فيتكلم في شعور النواب وتضامنهم مع النظار في كل ما يجلب الخير للـبلاد،

ويتلوه النديم، ثم يقوم فتح الله أفندي صبري (فتحي باشا زغلول) فيخطب في الحث على الاتحاد والثبات، وينتهي هذا الاجتماع.

وتتكرر أمثال هذه الاجتماعات، ويقال فيها مثل هذه الخطب، ويقوم بالدعوة إليها كبراء البلد، وكلها على غرار الحفلات السابقة، عمادها عبد الله نديم وإن اختلفت بعض الموضوعات، كدعوة إبراهيم اللقائي إلى التمسك بأسباب القوة والاتحاد، والحث على مجانبة الخوف والجبن، وخطبة فتحي زغلول في الأخذ بالمبادئ التي تمدن البلاد، والدعوة إلى إنشاء جمعية تفتح مدارس ليلية يتعلم فيها من لم يسمح له عمله بالتعلم.

ويدعى عبد الله نديم إلى حفلة في الإسكندرية على هذا الطراز، وكل هذه الحفلات توصف في جريدة الوقائع المصرية، ويذكر فيها خلاصة ما دار فيها من خطب، فتنتشر في البلاد.

فلما عطل الدستور، وتطورت الأمور، وكانت الثورة العرابية، تحولت خطب عبد الله نديم إلى موضوع الثورة، وكان يخطب في كل مجتمع: في الأزهر وطلبته، والجيش

وجنوده، وفي حفلات "الأفراح"، فما يكون مجتمع لغرض من الأغراض إلا ويطلع عليهم عبد ا نديم، وجماعة من ناشئته يعتلون المكان العالي ويخطبون في موضوعات الثورة، حتى كان إذا سئل محمد عثمان "المغني": أين تغني الليلة؟ يقـول: "في الفرح الفلاني مع عبد ا نديم". وهو في هذا الموقـف لا يتحرج من التهريج، فيقول مثلاً في بعـض خطبـه: إن طوابي الإسكندرية إذا أطلقت مدافعها يبلغ مرماهـا جزيـرة قبرص من هذا الجانب، ومدافع الآستانة إذا أطلقت تبلغ هذه الجزيرة من الجانب الآخر. فكيفما جالت الأساطيل الإنجليزية فهي تحت رحمة مدافعنا، فيصفق الناس، ويخطـب "فتحـي زغلول" فيقول النديم: ألا تعجبون لما أبدى هذا التلميـذ فـي خطبه من العلم والبيان والتفـنن فـي المواضـيع، مـع أن جلادستون خطيب إنجلترا لا يتناول إلا موضوعا واحـدا؟! ويخطب مصطفى ماهر فيقول النديم: أشهدكم أيها النـاس أن أمة يكون هذا مقدار استعداد التلميذ فيها لا يغلبها أحـد فـي أمرها.

على كل حال كان عبد ا نديم لسان الأمـة فـي عهـده بخطبه، وقلمها بصحفه، ينتقل في الأقاليم ولا يكل ولا يمـل،

وينشر آراءه ومشاعره في أكبر عدد ممكن من الأمة، وبذلك كله ساعد نمو رأي عام مصري يؤمن بـالحكم الشـورى، ويتطلع إلى الإصلاح في الأمور الاقتصـادية والاجتماعيـة والسياسية، فإن كان السيد جمال الدين رسول الخاصـة فـي هذه المعاني، فعبد ا نديم كان رسول العامة، قطر المعـاني التي تدعو إليها جمال الدين إلى الشعب، وأوصلها إلى التاجر في متجره، والفلاح في كوخه، والتلميذ في مدرسـته، كـان السيد جمال الدين بحكم أرستقراطيته في نشأته وثقافته والبيئة التي تحيط به، ولغته في كلامه وكتابته، معلم الخاصة، وكان عبد ا نديم بحكم ديمقراطيته في النشأة والعلم والبيئة واللغة معلم العامة.

لسنا الآن بصدد الحكم على الثورة العرابية وما نفعت وما أضرت والمسئولين عنها، والمآخذ عليها، وإنما كل ما يعنينا الآن أن نقول: إنه إذا تبخرت أقواله التي دعت إليها فـورة الثورة، وتبخرت أنواع تهريجه وتهويشه، بقى لنا جانب كبير من جوانب نفع عبد ا نديم في هذه الحركة، وهـو إيقـاظ الشعور في الشعب بحقه في الشكوى من الظلم، والمطالبـة بالعدل، وإفهامه أن الحاكم يجب أن يكون مسئولاً أمامه، وأن

هناك نوعا جديدا من الحكم غير الذي ألفه: من رجوع الأمور كلها إلى إرادة الحاكم يفعل ما يشاء، ولا يسأل عما يفعل، وهذا النوع الجديد هو حكم البلاد نفسها بنفسها ممثلاً في نوابها، وأن مصر للمصريين لا للدولة العليا، ولا لأية دولة أجنبية، وهذه معان قد كانت عند خاصة الخاصة، فنشرتها الثورة وعبد ا   نديم في العامة.

ولئن أخفقت الثورة فيقظة الرأي العام – إلى حد ما – وشعوره بنفسه، وتنبهه لحالته الاجتماعية والسياسية لم يخلق، ويتجلى ذلك على الأخص إذا قورن بينه وبين حالته من قبل.

- ٤ -

انتهت الثورة العرابية بالإخفاق والهزيمة المنكرة، وكانت الهزيمة الخلقية أقسى من الهزيمة الحربية، فقد ذل أكثر قواد الحركة، وتنكر لهم أكثر من كان يناصرهم، وبدأت السعايات[1] تدب، وكل من كانت له خصومة مالية أو عائلية سعى في الإيقاع بخصمه، يتهمه بعمل من أعمال الثورة،

---

(١) السعايات: الوشايات.

وامتلأت المجالس المشكلة للنظر في الدعاوى والتهم، وأخـذ كثير ممن اشتركوا في الحركة يتبرءون مما قالوا وما فعلوا. وإن استطاع كثير منهم أو حاول تبرئة نفسه، فعبد ا نـديم ليس مستطيع شيئًا من ذلك، فخطبه لا ينساها أحد، وأقوالـه مسجلة عليه في جريدة "الطائف"، فلابد إذا حوكم أن يحكـم عليه بأشد العقوبات، وكان أغلب الظن أنها الإعدام.

لقد فكر عرابي هو ومن معـه أن يطلبـوا العفـو مـن الخديوي، وكتبوا رسالة وبعثوها مع وفد إلـى الإسـكندرية لتقديمها إليه، ثم بدا لهم أن يغيروا بعض نصوصها، فبعثـوا بصيغة أخرى مع عبد ا نديم، فلما وصل إلى كفر الـدوار علم أن الخديوي رفض العريضة الأولى وأمر بالقبض على بعض رجالها، فعاد "النديم" إلى القاهرة، وأيقن بالهلاك، فأعد العدة للهرب والاستخفاء، وإذا به "فص ملـح وداب"، تجـد الحكومة وتضع له الأرصاد[1] وتوجه كل قوة للبحث عنـه، ويبعث كل من سلطان باشا ورياض باشا منشـورا لرجـال الإدارة بالجد والنشاط للقبض عليه، وتعلن مكافأة ألف جنيـه

---

(١) الأرصاد: أي الجواسيس.

لمن يرشد عنه، والعقوبة القصوى لمن يخفيه فيذهب كل ذلك سدى، مدى نحو عشرة أعوام، وهو في كل أمـوره يحتـال حيلاً أين منها حيل أبي زيد السروجي في مقامات الحريري؟ ويمثل روايات أين منها الروايات البوليسية المعروفة؟

لقد أعيت الحكومة أمره، فأصدرت عليه حكمـا غيابيـا بالنفي المؤبد من القطر المصري.

ها هو ذا أول مرة يذهب إلى "بـولاق" ويسـتخفي عنـد صديق له وفي أياما حتى يخف عنه الطلب، فيخرج وقد لبس "زعبوطًا" أحمر، واعتم بعمامة حمراء وربط عينيه بمنـديل، وأطال لحيته، وأمسك عكازا طويلاً، وتصنع أنه من مشـايخ الطرق، ونزل في سفينة مع خادمه إلى بنها، فلم يفطـن لـه أحد.

وجزع خادمه وكان أميا، وأراد أن يرجع إلى أهله، فأيقن "النديم" أنه إذا عاد انكشف أمره، فأخذ يقرأ الجريدة يوما، ثم تصنع إلى الفزع وقال: "لا حول ولا قـوة إلا بـا العلـي العظيم"، فسأله الخادم عما أفزعه، فقال "النديم": إن الحكومة قد جعلت لمن يرشد عني ألف جنيه، ولمـن يأتيهـا برأسـه خمسة آلاف، فخاف الخادم، وأخذ يبالغ في التنكر أكثر مـن

سيده، واستراح من هذا الباب، وظل معه طول مدة الاستخفاء. وقال هو عن نفسه في هذه الفترة: "خرجت من مصر مستخفيا فدرت في البلاد متنكرا، أدخل كل بلد بلباس مخصوص، وأتكلم في كل قرية بلسان يوافق دعواي التي أدعيها، من قولي إني مغربي أو يمني أو فيومي أو شرقاوي أو نجدي، وأصلح لحيتي إصلاحا يوافق الدعوى أيضا، فأطيلها في مكان عند دعوى المشيخة، وأقصرها في آخر عند دعوى السياحة – مثلاً – وأبيضها في بلد، وأحمرها في قرية، وأسودها في عزبة". فأحيانًا كان اسمه الشيخ يوسف المدني، وأحيانًا الشيخ محمد الفيومي، وأحيانًا سي الحاج علي المغربي، وهكذا، وأحيانًا كان يجتمع بمن يعرفهم فيثير عجبهم، لأن المقدرة مقدرة "النديم"، ولكن يختلف في الشكل والصوت واللهجة، فيقولون: سبحان ا جل من لا شبيه له.

وساعد على نجاحه في هذا الاستخفاء أمور، منها: مهارته في حيله، وإتقانه لما يدعي، فإذا ادعي أنه مغربي تكلم مغربي محكم، أو مدني فكذلك ادعي مرة – وهو في القرشية – أنه عالم يمني، وذاعت شهرته في العلم والأدب حتى بلغت القاهرة، فأرسل إليه رياض باشا "سعد زغلول"

ليسأله عن مثل ورد ذكره في بعض الجرائد ولم يفهم معناه، فقابله على أنه عالم يمني وفسر له [1].

وكان من مهارته في استخفائه أنه رأى جد الحكومة في طلبه، فاستعان برجل من الفرنسيين يعرفه ويثق به، فأشاع عنه أن النديم هرب إلى "ليفورنو" في إيطاليا، ونقلت هذا الخبر جريدة "الأهرام" وصدق الناس ذلك، وعنفت الحكومة رجال الضبط على إهمالهم حتى تمكن من الخروج، فخف عنه الطلب، ولم يكن كل ذلك إلا خدعة. وكتب صاحب جريدة "المحروسة" مرة بعد استخفائه بسنتين: إنه "قد تعددت الأقوال في مقر عبد ا النديم، فمن قائل إنه التجأ إلى البلاد الإيطالية، ومن قائل إنه فر إلى طرابلس الغرب، ومن زاعم أنه أتى السودان واتصل بالمهدي وصار له نديما، وقال قوم إنه سارع في السفر إلى "سيلان" للاجتماع بعرابي، والحقيقة

---

(١) هذا المثل هو "بعلة الورشان يأكل رطب المشان" والورشان: طائر يشبه الحمام؛ والمشان: نوع من أجرد التمر. وأصله أن جماعة عهدوا إلى خادم لهم أن يحفظ تمرهم، فكان يأكل رطبه ويزعم أن الورشان أكله، فقيل المثل. وهو يضرب لمن يظهر شيئًا والمراد منه شيئًا آخر.

فيما نعلم أنه أتى باريس في الأيام الأخيرة، ونشر فيها مقالة أتى فيها على ذكر الحرب العرابية، وندد بالمصريين، ونسب إليهم الضعف والجبن" إلخ.

ومنها عطف بعض الناس عليه، وإيمانهم بـأن المـروءة تقضي عليهم – وقد تزل بسـاحتهم – أن يخفـوا أمـره إذا علموا، وأن يساعدوه على الاستخفاء مهما أغـروا بالمـال، كالذي كان من عمدة "العتوة" بمديرية الغربية، وهو الشـيخ محمد الهمشري، فقد نزل عنده وعرفه بنفسه، فأكرم مثـواه، وأقامه في داره أكثر من ثلاث سنوات في مكان منعزل لـه باب خاص، وزوجه، وزوج خادمه، فلما توفى دعت زوجته أكبر أولادها، وقالت له: هل نطمع في المكافـأة أو تكـون كأبيك شهما تحفظ الجار وتحمي اللاجئ؟ فوعدها بأن يكـون كأبيه في حفظه، ووفى بذلك، حتى أحس "النـديم" بوشـاية واش، فخرج من عندهم حامدا مروءتهم.

وصادفه مرة مأمور مركز شركسي، والنديم في تنقله بين البلاد، فعرفه، فصرف جنده ثم اختلى به، وقال: لا ضرورة لتنكرك فقد عرفتك، وأعطاه ما معه من نقود، ورسم له خطة السير في طريقه حتى لا يضبط.

وكان في أول مرة أمره شديد الحنين لأبيه وأمه وأخيه. لا يعرف ما صاروا إليه، شديد الشوق لمعرفة كتبه وتآليفه وأوراقه التي تركها في بيته بالإسكندرية، ثم وسط الصديق الفرنسي أن يتعرف كل ذلك ويأتيه بالأخبار، فعرف الفرنسي أن أسرته تشتت والناس تنكروا لهم، والأرصاد وضعت حولهم، وإن أباه يقيم عند قريبة له في الريف، وأن كتبه وتأليفه التي أنفق فيها تسعة عشر عاما، عندما ضربت الإسكندرية وهاجر منها أهلها وضعها أبوه في ثلاثة صناديق كبار شحن بها عربة من عربات السكر الحديدية، فلما وصلت إلى كفر الزيات ازدحم على القطار المسافرون من المهاجرين ازدحاما هائلاً، فلم يسع رجال المحطة إلا أن يرموا جميع ما بالعربة في النيل، ومنها الصناديق الثلاثة وفيها كل ثروته العقلية.

ثم لما هدأت الأحوال وخف عنه الطلب كان يتصل بأبيه وأخيه اتصالا منظما.

وتأتي عليه أزمات ثم تنفرج، فهذا عيد الأضحى وهو في "برية المندرة" يسكن وسط الحقول، لا يساكنه أحد إلا زوجته، ولا يجد القوت الضروري، ويأتيه خادمه الذي يسكن

بعيدا عنه يشكو له البؤس والفقر وعدم القوت في يوم العيد، فما هو إلا أن بعث له رجل من أهل البر والمروءة بما يملأ بيته قمحا وعسلاً وسمنًا وثيابا، كما يبعث الأطلس والحرير للبس زوجته، وشيئًا من ذلك الخادم وزوجته، وأتيح له من الفراغ ما مكنه من إكمال نفسه بالمدرسة والتأليف، فكان إذا اطمأن في قرية قرأ ما تصل إليه يده من الكتب، وكانت مكتبته في هذه الأيام مكتبة خفيفة يسهل حملها إذا دعا داعي الرحيل السريع، فكانت تفسير القرآن لأبي السعود، وقاموس الفيروز أبادي، و"الوافي" في المسألة الشرقية لأمين شميل، وجغرافية ملطبرون الذي ترجمه الشيخ رفاعة، وألف فيما يعن له في الدين والتاريخ. فكان هذا نعمة عليه لم يستطعها في أيامه الأولى. كتب لصديق له في هذه الفترة يقول: "إن سالت عني فأنا بخير وعافية، وحالة رائقة صافية، لا أشغل فكري بما يأتي به الليل إذا كنت بالنهار، ولا أتعب ذهني بتوالي الخطوب والأكدار، ولا أتألم من طول المدة، ووقع الشدة، لاعتقادي أن لكل شدة مدة، متى انتهت جفت الأوحال، وحسنت الحال، فتراني فكري كليمي، وقلمي نديمي – تارة أشتغل بكتابة فصول في علم الأصول، وأجمع عقائد أهل

السنة، بما تعظم به ا المنة، وحينًا أشتغل بنظم فرائده، في صورة قصائد، ووقتًا أكتب رسائل مؤتلفة، في فنونها مختلفة، وآونة أكتب في التصوف والسلوك وسير الأخبار والملـوك، وزمنًا أكتب في العادات والأخلاق، وجغرافية الآفاق، ومـرة أطوف الأكوان، على سفينة تاريخ الزمان، ويومـا أشـتغل بشرح أنواع البديع، في مدح الشفيع... وقـد تـم لـي الآن عشرون مؤلفًا بين صغير وكبير، فانظر إلى آثار رحمة ا اللطيف الخبير، كيف جعل أيام المحنة، وسيلة للمنحة والمنة. أتراني كنت أكتب هذه العلوم، في ذلك الوقت المعلوم، وقـد كنت أشغل من مرضعة اثنين وفي حجرها ثالث وعلى كتفها رابع، وأتعب من مربي عشرة وليس له تابع، أشتغل بعـض النهار بتحرير الجورنال، وأقضي ليلي في دراسة الأحـوال، مشتغلاً بمجالس الجمعيات الخيريـة ومدارسـها التعليميـة، وزيارة الإخوان، ومراقبة أبناء الزمان، وقد نسـيت الأهـل والعيلة، وربما نسيت الطعام يوما وليلة، فكنت كآلة يحركهـا البخار، لا سكون لها ما دام الماء والنار. فمتى كنت أنظـر للمخلفات، وأكتب هذه المؤلفات؟

ولـو أن نـار مصـيبتي	**فـي الغيـر أصـلاه الزفيـر**
لكنهـا فـي سـاحة	**مـن فوقهـا جـو مطيـر**

هـو صـدق إيمـاني و صـبري للقضـاء بـلا نكيـر
ووقـوف جـيش عزيمتـي فـي بـاب مـولاي البصـير

وكان في رحلته برا بخادمه "حسين" الـذي غيـر اسـمه فسماه "صالحا"، وزوجه، وعلمه القراءة، والكتابة، وحفظـه جملة سور من القرآن، وعلمـه الفقـه والتوحيـد، واتخـذه صاحبا.

وتواردت عليه أيام بؤس ومحن يشـيب منهـا الوليـد، تغضب عليه زوجته وتلاطمه على فمه، حتـى تكـاد تسـقط ثناياه، وربما رأى – مع هذه الحـال – أن إظهـار نفسـه للحكومة أهون عليه، ثـم يرتضـاها ويصـالحها، وأحيانًـا تتخاصم زوجته مع زوجة خادمه وتشتد الشـحناء، وتهـدده كلتاهما بأن تفضح أمره، فيتدارك كل ذلك بحيلـه، وأحيانًـا يشعر بالخطر يهدده فيشتد في الحذر والاستخفاء، حتى لقـد استخفى مرة في قاعة مظلمة لا يتوصل إليها إلا من سرداب طويل مظلم، يرشح الماء أرضها لقربهـا مـن ترعـة، ولا يتمكن من القراءة والكتابة إلا على مصباح صـغير يضـاء بالجاز فيملأ الحجرة دخانًا، ويستمر فيها نحو تسعة أشـهر، وأحيانًا يبلغ به سوء الحال مع الرغبة الشديدة في الكتابة أن

يصنع الحبر من هباب [١] الفرن، ويضيف إليه بعض قـرط السنط، ويتخذ أقلامه من الحجناء [٢]. وهو على كـل ذلـك صبور، يعزيه أن يجد من أهل المروءة ما يخفـف كربـه، ويضمد جرحه "فمحمد معبد" الحلاق "بشباس الشهداء" يؤويه في بيته، ويغمره بفضله، وينفق عليه ما يحرم منه أسـرته. و"أحمد جوده" الفلاح يصاحبه في انتقالاته في الظلام الحالك، ويعرض نفسه من أجله للمخاطر.

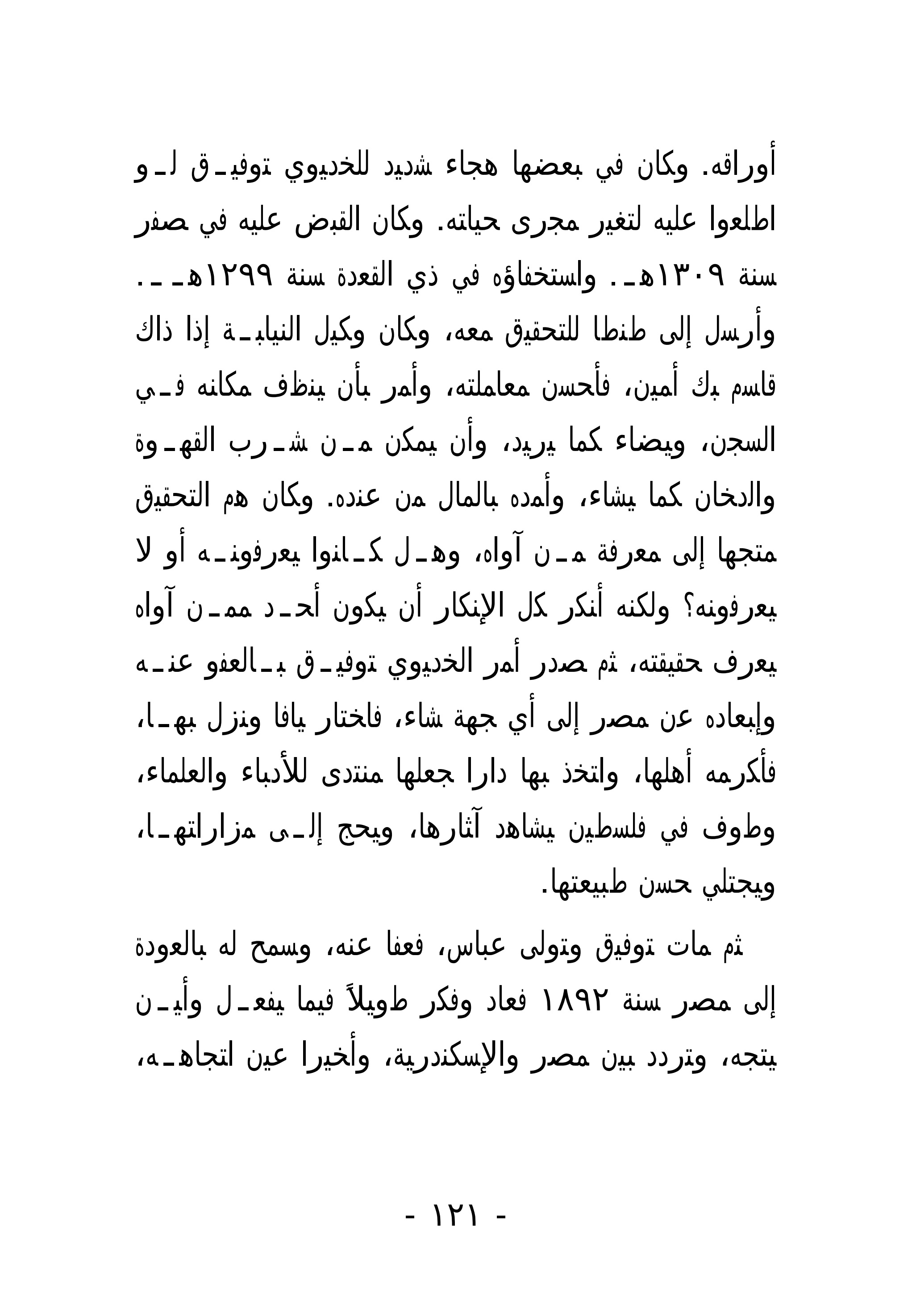
لشد ما أتعب نفسه في استخفائه، وأتعب الناس معه ولكن ما أكثر ما أمتعهم أيضا بأحاديثه وفكاهاته، ووعظه وسمره.

وأخيرا نزل "بالجميزة" فعرفه عمدتها وكتم أمره، ولكـن رجلاً اسمه حسن الفرارجي – كان جنديا ثم استخدم جاسوسا – عرفه فكتب إلى السراي وإلى الداخلية، فأمرت بـالقبض عليه، وذهب وكيل حكمدار الغربية ومعه قـوة مـن الجنـد فالتفوا حول البلدة، وأراد "النديم" الهرب بحيله القديمـة فلـم يستطع، فاستسلم. وكان من حسن حظه أنهم لم ينتبهوا إلـى

---

(١) الهباب: التراب.

(٢) الحجناء: نبات معروف بمصر.



أوراقه. وكان في بعضها هجاء شديد للخديوي توفيـق لـو اطلعوا عليه لتغير مجرى حياته. وكان القبض عليه في صفر سنة ١٣٠٩هـ. واستخفاؤه في ذي القعدة سنة ١٢٩٩هـ.. وأرسل إلى طنطا للتحقيق معه، وكان وكيل النيابـة إذا ذاك قاسم بك أمين، فأحسن معاملته، وأمر بأن ينظف مكانه فـي السجن، ويضاء كما يريد، وأن يمكن مـن شـرب القهـوة والدخان كما يشاء، وأمده بالمال من عنده. وكان هم التحقيق متجها إلى معرفة مـن آواه، وهـل كـانوا يعرفونـه أو لا يعرفونه؟ ولكنه أنكر كل الإنكار أن يكون أحـد ممـن آواه يعرف حقيقته، ثم صدر أمر الخديوي توفيـق بـالعفو عنـه وإبعاده عن مصر إلى أي جهة شاء، فاختار يافا ونزل بهـا، فأكرمه أهلها، واتخذ بها دارا جعلها منتدى للأدباء والعلماء، وطوف في فلسطين يشاهد آثارها، ويحج إلـى مزاراتهـا، ويجتلي حسن طبيعتها.

ثم مات توفيق وتولى عباس، فعفا عنه، وسمح له بالعودة إلى مصر سنة ١٨٩٢ فعاد وفكر طويلاً فيما يفعـل وأيـن يتجه، وتردد بين مصر والإسكندرية، وأخيرا عين اتجاهـه،

وقرر أن ينشئ بالقاهرة مجلة "الأستاذ" فكان صفحة جديدة في باب جهاده.

- ٥ -

كانت الظروف التي تولى فيها الخديوي عباس ظروفًا دقيقة، شاب ناشئ في الثامنة عشرة من عمره، دعي من (فينا) حيث يتعلم ليتولى الحكم في مصر، ومصر قد انتهت ثورتها العرابية واطمأن الإنجليز إلى احتلالها، ووضعوا أسس نظامها، وتمكنوا من وضع أيديهم على كل شأن من شئونها، وعباس الشاب لقن آراء الاستقلال والشعور بالوطنية والعزم على العمل لتسترد مصر ما فقدت، وهو يعيب على جده إسرافه، ويعيب على أبيه توفيق استسلامه، وعلى رجال المعية ضعفهم، وشباب الأمة يبلغه هذا الشعور فيجاوبه، فيتوجه الخديوي لصلاة الجمعة في المسجد الحسيني فيقابله الشعب في حماسة، "ويتقدم الطلبة وغيرهم من المحتشدين بالسكة الجديدة – نحو العربة الخديوية ويقصون جيادها ويجرونها بأنفسهم"، ويغير الخديوي رجال المعية بغيرهم ممن هم أقرب إلى نفسه ومبادئه.

وفي ذلك الوقت كانت فرنسا تشعر بخطئها في سياسـتها الماضية التي آلت إلى ضعف نفوذها في مصـر، فأخـذت تبحث عن طريقة لاسترداد بعض ما فقدت فرأت أن يكـون من هذه السبل الالتفاف حول "عباس".

وتركيا كذلك تأسف هذا الأسف، وتتجه هـذا الاتجـاه – وكل هؤلاء وهؤلاء يطالبون بالوفاء بوعد إنجلترا بـالجلاء عند صلاح الأمور.

والحكومة الإنجليزية تلوح في البرلمان الإنجليـزي مـن طرف خفي بالنصح لعباس أن يتبع سياسة والده في مسـألة الإنجليز والتحالف معهم.

وأخذ الخديوي عباس يتصل بالشعب ويوسع نفوذه عـن طريق الرحلات في المديريات، ومقابلة الأعيـان، وزيـارة المعاهد والمدارس، كما أخذ يميل إلى مباشرة الأعمال بنفسه بالاتصال بالمديرين، وتكليفه المختصين كتابة التقارير عـن نظم التعليم والجيش ونحو ذلك، فبدأ شيء من الجفـاء بينـه وبين اللورد كرومر، وتسرب ذلك إلى الشعب.

عند ذلك بدأت تظهر في البلاد تيارات مختلفـة، وبـدأت توضع بذور الأحزاب المختلفة، وبـدأت تتجلـى بوضـوح اتجاهات الصحف المختلفة.

هذه تؤيد الحركة الوطنية وتناصر الميول الخديوية، إمـا عن إخلاص، وإما رغبة في الكسب، وإما خدمـة للسياسـة الفرنسية، وهذه تؤيد السياسة الإنجليزية، إمـا رغبـة فـي الاستفادة، وإما عن عقيدة أيضا.

وظهر أثر ذلك في الجدل في المجالس والمنـاظرة فـي الصحف.

في هذا الأفق المملوء بالسحب، ظهر "عبد ا نديم"، وقد سمح له الخديوي عباس بدخول مصر، فمكث قليلاً يتعـرف الأحوال، ويدرس ما فاته من شئون مصر مدة غيابـه، ثـم صح عزمه على تحديد الغرض وإنشاء جريدة "الأستاذ" قـال عنها: "إنها جريدة علمية تهذيبية فكاهية"، تصدر يوم الثلاثاء من كل أسبوع، وظهر العدد الأول منها في أول صفر سـنة ١٣١٠هـ - ٢٣ أغسـطس سـنة ١٩٩٢م، يتـولى هـو تحريرها، ويتولى أخوه إدارتها، وقد كتب في أول عدد منها

أنها لا تتعرض للسياسة العملية الإدارية، أما السياسـة مـن حيث هي فن فإنها تدخل في موضوعها العلمي.

كانت أول أمرها تعد امتدادا لجريدته "التبكيت والتنكيـت" من حيث موضوعها وأسلوبها، فهي تعني أكثر ما تعني بنقد العيوب الاجتماعية في المجتمع المصري، وفيها مقال أو نحو ذلك في شئون الإصلاح السياسي من وجهة عامة، ثم هـي تحرر باللغة العربية الفصـحى فـي المقـالات السياسـية الإصلاحية، وباللغة العامية في الموضوعات الاجتماعية.

والمطلع على ما كتبه في هذا العهد يرى أنه بعد رجوعه من مخبئه قد فوجئ بموجة من الانحلال الخلقي في الـبلاد. فإفراط لم يكن معهودا من قبل في شرب الخمـور، وعـدم اكتراث الشاربين بنقد الناقدين، وانتشار للخمارات في المدن والبلاد والقوى، وابتزاز الأروام للأموال عـن طريقهـا – وشعور النساء بالحرية، فهن يكثرن من الخروج في الشوارع متبرجات بزينتهن، ثم الحشيش والمعاجين والإفـراط فيهـا والاحتفاء بمجالسها. ثم استعمال كلمة الحرية وسيلة للانهماك في اللذات والشهوات، وأعجب من ذلك السقوط فـي تقليـد المصري للأوربي تقليدا أعمى في لي لسانه بالقول، والتشدق

باستخدامه كلمات أجنبية أثناء حديثه بالعربية، ولبس الضيق المحبوك من الثياب الإفرنجية، فنقد كل ذلك في أسلوب قوي جريء، واتهم الأوربيين بتشجيعهم هذه الأمور حتى يسقط الشرق وتنحل أخلاقه، ونقد كذلك منهاج التعليم في البلاد، وخلوها من بث الروح القومية والعصبية المصرية، وحث أبناء البلاد على إنشاء الجمعيات الخيرية التي تسد هذا النقص، ونحو ذلك.

وعجب مما رأى من أن كثيرا من أولي الرأي في الأمة أصابتهم الدهشة والرعب من الاحتلال، فانطووا على أنفسهم، ولزموا دورهم، فإن تكلموا في الشئون العامة فمن وراء حجاب، وتركوا الناس مبلبلة أفكارهم، مضطربة نفوسهم، لا يعرفون أين يتجهون، فدعا إلى خروج ذوي الرأي من عزلتهم، واختلاطهم بالرأي العام في المجامع العامة، ويخطبون فيهم، ويشرحون ما حدث وما يحدث، حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم.

في كل ذلك كتب "عبد ا نديم" في الأعداد الأولى من "الأستاذ" – ووجد النفوس مستعدة لهذه الدعوات كأنها حائرة تنتظر الدليل، ضالة تلتمس الهادي، فانتشر "الأستاذ" انتشارا

فاق ما كان يتوقع، فقد كان يطبع منه حـول ثلاثـة آلاف، كأكبر جريدة يومية إذ ذاك، وأعيد طبع الأعداد الأولى منه.

وقد حاول مرة أن يحرر الجريدة كلهـا باللغـة العربيـة الفصحى، فأتته رسائل الاحتجاج الكثيرة تذكر له خطأه، لأن المرأة تسمع مقالاته في بيتها، والعامي يسـمعها وهـو فـي مصنعه ومتجره، والفلاح في حقله، وكلهم يستفيد من نقـده، وكثير يتعظ بنصحه، فنزل عند رأيهم، وأعادها كمـا كانـت عربية فصيحة في بعضها، عامية في بعضها.

ثم نرى نغمته تعلو شيئًا فشيئًا فـي الميـدان السياسـي، ومناصرة الحركة الوطنية، ومـؤازرة الخـديوي عبـاس، ومناهضة الاحتلال، حتى بدا ذلك واضحا في العدد الصادر في ١٧ يناير سنة ١٩٨٣، فيفتتح العدد بمقال جريء عنوانه: "لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا"، وهي كلمة كانت تتردد على لسان بعض الأوربيين يخاطبون بها الشرقيين، ويقع المقال في ست وعشرين صفحة من أقوى ما يكتب، يصف فيها حالة الغرب وحالة الشرق ووسائل الاستعمار، وما إلـى ذلـك، وينـدد بالغربيين في أساليبهم، وبالشرقيين في غفلتهم، ويشرح مـا تفعله الحكومات الغربية لترقية شعوبها، وما تنشره في أمـم

الشرق لانحلالها، ومـا يفعلـه المصـريون فـي تخـاذلهم وتواكلهم[1]، ويدعو إلى الالتفاف حول الخـديوي ومطالبتـه بالمحافظة على حقوقه الشـرعية، ويخـتم المقـال بقولـه: "وبالجملة فقد بلغ السيل الزبى[2]. فإن رفونا هـذا الخـرق، وشددنا آزر بعضنا، وجمعنا الكلمة الشرقية، مصرية وشامية وعربية وتركية، أمكننا أن نقول أوربا: نحن نحن، وأنتم أنتم، وإن بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ[3] بالأجنبي فريقًا بعد فريق، حق لأوربا أن تطردنا من بلادنا، وتصـدق فـي قولها: "لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا".

واستمر على هذه النغمة كذلك في الأعداد التالية، والمطلع على الحوادث التي كانت تجري في تلك الأيام يرى أن علـو هذه النغمة كان صدى لما يحدث من أزمات، ففي هذه الأيام بعينها اشتد الجفاء بين الخديوي عباس واللورد كرومر، ففي ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ أقال الخديوي مصطفى باشـا فهمـي

---

(١) تواكلهم: اتكال بعضهم على بعض.

(٢) الزبى، جمع زبية، وهي: المكان المرتفع من الأرض لا يعلوه ماء.

(٣) اللياذ: الالتجاء.

منتهزا فرصة مرضه، وعهد إلى حسين فخري باشـا فـي تشكيل الوزارة، فعارض اللورد كرومر في تعيين الـوزارة من غير أخذ رأيه، واشتد الأخذ والـرد، وأنـذرت إنجلتـرا الخديوي إنذارا شديدا، وانتهت المسألة باستقالة حسين فخري وتعيين رياض باشا حسبما أشار اللورد كرومـر. وانتشـر الخبر في الشعب، فأقبلت الوفود على الخديوي في ١٨ يناير تلقى الخطب في تأييده في موقفه، وظهر أثر ذلك واضحا في الجرائد التي تناصر الحركة الوطنية، فكان هذا هو السـبب فيما نرى من حرارة مقالات النديم في تلك الأيام وما بعدها، ومناصرته للخديوي، ومنازلته للجرائد المخالفـة فـي قـوة ووضوح.

وهو – مع هذا – توسع فـي اقتراحـات الإصـلاحات الاجتماعية، فينقد علماء الأزهر في انزوائهم وعدم معرفتهم بالدنيا وما يجري فيها، ويضع برنامجـا واسـعا لإصـلاح الأزهر، كما ينقد الزراعة في مصر وتأخرهـا، ووجـوب إصلاحها على أساس علمي صحيح، وفوضى اللغة العربية، ووجوب إنشاء مجمع يحفظ كيانها ويكمل نقصها، والخرافات

والأوهام، والطرق الصوفية وما يجري فيهـا مـن مخـاز وعيوب.. إلخ.

ثم علت نغمته طبقة أخرى، فأخذ ينقد الإنجليز صـراحة في سياستهم في الهند ومصر، ويسب من يلوذ بهـم ويهـيج الناس على المبشرين وطرق التبشير.

ويقول: إن السياسة تؤيدهم وتلعب ألاعيبها من ورائهـم، فتألبت عليه الجرائد المخالفة له في مذهبـه مـن إنجليزيـة وعربية وحذرت منه، وقالت إنه يعـد الـبلاد لفتنـة بـين المسلمين وغيرهم، وبين المصريين بعضهم وبعض، ويحرك الضغائن بين المصريين والأجانب، ويهيئ لثـورة كـالثورة العرابية، ونصحت لأولي الأمر مـن الإنجليـز أن يأخـذوا حذرهم منه وإلا ساءت العاقبة، وشهرت به بعض الجرائـد الإنجليزية كالتيمس، والديلي نيوز، وقالت إنه متعصب للدين، مقبح لجميع أعمال الأوربيين، وإنه ثوري مهـيج، وأيـدتها المقطم، ودافع عنه المؤيد والأهرام والوطن، وبعض الجرائد الفرنسية، ولم يأل هو جهد في منازلة خصـومه والتشـهير بهم، وإعلان عدم المبالاة بما يجري له، فقد لاقـى العـذاب ألوانًا في أيام استخفائه، فكل ما سيناله هين بالقياس إلى مـا

لقي، وأعاد نشر قصيدة له في ذلك كان قد أنشأها في مخبئه، ومنها:

إذا ما الدهر صـافانا مرضـنا	**فإن عدنا إلـى خطـب شـفينا**
لنـا جلـد علـى جلـد يقينـا	**فـإذا زاد الـبلا زدنـا يقينـا**
إذا مـا المجـد نادانـا أجبنـا	**فيظهـر حـين ينظرنـا حينـا**
يغنينـــا فيلهينـــا التغنـــي	**عن الباكي وينسـينا الحزينـا**
ولسنا السـاخطين إذا رزئنـا	**نعم يلقي القضـا قلبـا رزينـا**
إذا طاش الزمان بنـا حلمنـا	**ولكنـــا نهينـــا إن نهينـــا**

وأخيرا طلب اللورد كرومر من الخديوي عبـاس نفيـه فأطاع، ولم يستطع أن يحمي من كان يحميه، وودع "الأستاذ" قراءه في آخر عدد منه صدر في ١٣ يونيـه سـنة ١٨٩٣. فكان عمره أقل من عام، ولم يذكر في وداعه السبب الحقيقي الذي من أجله أغلق "الأستاذ" ونفى صاحبه، بل قال إن سبب ذلك المرض وحاجته إلى الاشتفاء، وقال في آخـر وداعـه: وما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال، والعاقل يتلذذ بمـا يراه في فصول تاريخه من العظم والجلال، وعلى هذا فـإني أودع إخواني قائلاً:

أودعكـــم وا يعلـــم أنننـــي	**أحب لقـاكم والخلـود إلـيكم**
وما عن قلي كان الرحيل وإنما	**دواع تعددت فالسـلام علـيكم**

وكان ينشر ملحقًا "للأستاذ" هو صفحات من كتـاب ألفـه وهو في المخبأ اسمه "كان ويكون" جمع فيه بعد، ولـم يـتم نشره، كان يريد من تدوينه عرض خلاصة أفكـاره الدينيـة واللغوية والسياسية والأدبية والتاريخية والإنسانية، ملتزما فيه حرية الفكر، وعدم التعصب لدين أو جنس، ذاكرا فيـه مـا شاهده في مصر من أحداث، مبينًا ما وراءها من علل.

ووضعه على نمط قصصي، إذ كان له صديق فرنسي أتى من باريس قبل الثورة العرابية، وتعلم العربيـة والتركيـة، وأقامه في مصر متتبعا حوادثها، وعرف عبد ا نـديم فـي الإسكندرية سنة ١٢٩٢ هجرية، وتوثقـت بينهمـا الصـلة، وكانت له ضيعة قريبة من البلدة التي اختبـأ فيهـا "النـديم" فاتصل به في مخبئه، وكان الفرنسي يزوره ويخدمـه فـي قضاء أغراضه، وكثيرا ما يدور الحديث بينهما فـي الـدين والسياسة فبنى كتابه "كان ويكون" على هذا، ودون فيـه مـا كان يدور بينهما من حديث وجدل، وأكثر ما نشر كان فـي أصول الأديان، وتاريخ اليهودية والمسيحية والإسلام، يتخلل ذلك بعض أخبار عن أحواله في مخبئه، وبعـض نظـرات سياسية. ومما يؤسف له أن إقفال جريدة "الأستاذ" حال بينـه

وبين نشر القسم السياسي والتاريخ المصري من الكتاب، وما نشر منه يدل على نظر عميق واطلاع واسع وسماحة دينيـة لطيفة، وعاطفة جياشة بحب الخير لمصر والشرقيين.

- ٦ -

خرج "النديم" إلى يافا؛ حيث كان قبل العفو عنه، ورتبـت له الحكومة المصرية خمسة وعشرين جنيها شـهريا يعـيش بها، على شرط ألا يكتب شيئًا في الجرائد يتصـل بسياسـة مصر.

وما لبث أربعة أشهر في يافا حتى وشى به الوشاة بأنـه يطعن في سياسة الدولة العليا، ويلمز السلطان، فصدر الأمر بإبعاده أيضا.

فأخذ يذرع الأرض لا يعرف أن يستقر، فلا مصر تقبله، ولا أي أرض من أراضي الدولة العثمانيـة تحلـه، ونـزل الإسكندرية أياما حتى تحل مشكلته.

وقد كان كثير من أحرار العثمانيين إذ ذاك قد سافروا إلى أوربا ومصر، وأنشأوا الجرائد يطالبون بالدستور وبإصـلاح الدولة، وينقدون السلطان نقدا مرا. فكان من سياسـة عبـد

الحميد في بعض الأوقات أن يسترضي هؤلاء الناقمين، ويحبب إليهم الإقامة في الآستانة تحت سمعه وبصره، ويجري عليهم الرزق الواسع، ويسند إليهم بعض المناصب، فيتقي آذاهم، ويستجلب رضاهم. فاحتشد في الآستانة من أرباب القلم واللسان عدد كبير، منهم السيد جمال الدين الأفغاني وغيره من أدباء الترك وشعرائهم وساستهم، فكان أن الغازي مختار باشا أشار على الدولة العليا أن تعامل عبد الله نديم هذه المعاملة فقبلت. وسافر إلى الآستانة، وصدرت الإرادة السلطانية بتعيينه مفتشًا للمطبوعات بالباب العالي بمرتب ٤٥ جنيها مجيديا، مضافة إلى الخمسة والعشرين التي يتقاضاها من مصر – ينفق كل ذلك على نفسه وإخوانه، ومن يبره من أهله وأقاربه، ومن أيام المنصورة عرف بأنه صناع القلم واللسان، وأخرق اليد [1].

دخل الآستانة، فدخل القفص الذي دخل في مثله جمال الدين الأفغاني، وغاية الأمر أن قفص جمال الدين ضيق من

---

(١) أخرق أحمق: لا يحسن التصرف، وأخرق اليد: كناية الإسراف.

ذهب، وقفص النديم واسع من حديد، يختلفان بمقدار الخطـر من كل منهما ومكانته وحسبه ونسبه، فالسيد جمـال الـدين يخصص له بيت فخم، ويجعل تحت أمره عربة وخدم وحشم، ويجرى عليه ٧٥ ليرة في الشهر، وتعرض عليـه مشـيخة الإسلام فيأبى، وعبد ا ندیم يعين مفتشًا للمطبوعات بخمسة وأربعين ليرة، ولا بيت ولا خدم – ولا غرو فالسيد جمـال الدين سيد في طبعه وحسبه ونسبه، كان يعد نفسه قريبا للشاه والسلطان، لا يقل عنهما إلا بما شاء القـدر مـن تحليتهمـا بالملك وعطله منه، وعبد ا نديم يرى أنه من الشعب وابن الشعب وخادمه، لا يمتاز إلا بما منحه ا من ذكاء ولسـن. إذا دعا السيد جمال الدين إلى الإصلاح شعر بأنـه يخطـب الناس من أعلى مكان يشرف عليهم، وهو غضوب وقـور، وإذا دعا "النديم" شعر بأنه واقف في وسطهم يضـحك لهـم ويضحك منهم ويصلحهم. ولهذا كان جمال الدين جليلاً يسمع لقوله في رهبة وخشية، وينصح النـاس وكأنـه يضـربهم بالسياط، كأن النديم محبوبا يقابل بالابتسام، ويقبل قوله فـي فرح، ولذلك كان أسف الناس في مصر على فـراق النـديم

أكثر من أسفهم على فراق جمال الدين، لأن سؤدد[1] جمـال الدين في الخاصة وسؤدد النديم في العامة.

وعجيب أن يقبل "نديم" (وظيفة) مفتش للمطبوعات وهـو الذي ينال الأذى دائما من إدارة المطبوعات، وأن يرضى أن يتحكم في الصحف، وهو الذي كان يأبى أن يتحكم فيه أحـد، وأن يكون أداة لتقييد الحرية، بعـد أن كـان داعيـة لتأييـد الحرية!! ولكن يخفف من هذا أن "الوظيفة" كانـت صـورية محضة، وكان الغرض منها أن يمنح المكافأة في مظهر غير وضيع.

ها هو ذا في الآستانة قد عطلت كل مواهبه، فلا خطابـة ولا كتابة، ولا تهييج ولا تحميس، وهو في وسط يكاد يختنق منه، ولا يفرج عنه إلا مجالس السيد جمال الـدين، يحادثـه ويسامره، وكل يشكو إلى صاحبه قفصه.

ولكن أنى لصاحب هذا اللسان أن يهدأ؟

---

(١) السؤدد: السيادة وعلو المقام.

لقد وقع الخصومة مع أبي الهدي الصيادي كما وقع فيها معه السيد جمال الدين، ولكن السيد عف اللسان في الخصومة الشخصية، أما "النديم" فويل لمن عاداه.

كان أبو الهدي عجبا مـن العجـب، إذا أرخـت الدولـة العثمانية في عهد عبد الحميد احتل كثيـرا مـن صـفحات تاريخها، وكان مستترا وراء الصفحات الباقية، يرن اسمه في كل أنحاء المملكة من مصر وسـورية والعـراق وتـونس والجزائر، ويتقرب إليه الولاة في حل كل عظيمة – أثبت به القدر أنه على كل شيء قدير.

سوري من حلب، فقير المال والحسب، دفعته المقادير إلى الآستانة، وكان ماهرا ذكيا وسيم المحيا، ماضـي العزيمـة، قادرا على معرفة نفوس الناس ومن أن تؤتي، فتغلب علـى عقل السلطان عبد الحميد بأحلامـه وتفسـيراته، والطـرق ومشيختها، فربط نسبه بأعلى نسب، فهـو قرشـي هاشـمي علوي، وهو في الطريقة رفاعي له الأتباع الكثيرون، لا يعبأ بالمال يأتيه على كثرته فينفقه ويسـتدين، لأن عـز الجـاه والسلطة عنده أقوى من عز المال.

له أعين تأتي له بكل الأخبار، فيستغلها أمهر استغلال. لم يقف عند الدين والولاية والصوفية، بل مد نفوذه إلى الشئون السياسية والإدارية والعسكرية، يحلم فلا حد لحلمه، ويبطش فلا حد لبطشه سمي "مستشار الملك" و"حامي العثمانيين" و"سيد العرب"، استمال كثيرا من الأمراء والوجهاء والأعيان والعلماء والأدباء فكانوا عونًا له على كل ما أراد، يبطش بهم حين يريد البطش، ويؤلف بهم الكتب حين يريد شهرة العلم، وينظم بهم القصائد حين يريد الأدب والشعر، إلى كرم وسماحة وحسن حديث.

الدنيا كلها يجب أن تسخر لشخصه، وأن تخضع لأمره، الحق ما أتى من طريقه، والباطل ما أتى من طريق غيره – عدو كل سلاح، وخصيم كل حر. كم له من ضحايا في السجون، وفي أعماق البحار، وفي ذل الفقر، وفي بؤس المنفى. تتملقه الأمراء، وتهابه العظماء.

وكم أنفذ أمره وأبطل أمر السلطان، وكم تدلل على عبد الحميد فاسترضاه، وبالغ في الطلب فأوفاه [1]!!

(١) أوفاه: سمح له به كاملاً.

هذا أبو الهدي الصيادي الذي لم يتحرز عبد ا نـديم أن يخاصمه وينازله، ويطلق فيه لسانه، ووضع فيه كتابا سـماه "المسامير"، لم ينشر في حياتـه، وهـو كتـاب لا يشـرف الصيادي ولا عبد ا نديم، لأنه استعمل فيه أسلوبا وضـيعا وهجاه فيه هجاء مقذعا.

وبلغ أبا الهدي أمر هذا الكتاب المخطوط، فأبلغ السـلطان عبد الحميد أن فيه أيضا هجاء له، فبحث عنه طويلاً من غير جدوى، استطاع "جورج كرتشي" الذي كانت متصلاً بالسـيد جمال الدين و"النديم" أن يحتفظ به ويخفيه ويفر به إلى مصر، ثم يطبعه.

لم تطل حياة "النديم" في الآستانة طـويلاً، فقـد أصـيب بالسل، واشتدت عليه العلة، فمات في العاشر من أكتوبر سنة ١٨٩٦، واحتفل بجنازته احتفالاً كبيرا مشى فيه السيد جمال الدين – الذي لحقه إلى ربه بعد أشهر – ودفن فـي مـدفن يحيى أفندي في "باشكطاش".

وكانت أمه وأخوه قد علما بشدة مرضه، فسـافرا إليـه، ولكن لم يدركاه إلا ميتًا، ووجدا متاعه وأثاثه وكل شيء لـه قد نهب، فعادا وليس في يدهما إلا الحزن والأسى.

مات في نحو الرابعة والخمسين من عمـره، فلـم يكـن بالعمر الطويل، ولكنه عمر عريض فطالما غذى الناس بقلمه وهيجهم بأفكاره، وأضحكهم وأبكاهم، وحير رجال الشرطة. وأقلق بال رجال السياسة، ونـازل خصـومه مـن رجـال الصحافة، فنال منهم أكثر مما نالوا منه، ولم يهدأ له لسـان ولا قلم حيث حل، ولا على أي حال كان، حتى هدأه المـوت الذي يهدئ كل ثائر.

مهما أخذ عليه فقد كان عظيما!

فتح للناس في جريدتيه "التبكيت والتنكيت" و"الأستاذ" أبوابا من الإصلاح الاجتماعي كانت مغلقة، في التعليم والزراعة، واللغة والصناعة، والأخلاق وما إلى ذلك، فسار المصلحون على أثره.

وكانت الجرائد المشهورة في عهده "المقطم" و"الأهرامات" و"المؤيد" و"النيل"، وكان لها ثلاث اتجاهات: منها ما يسـالم الاحتلال ويؤيده، ومنها ما يؤيد الحركة الوطنية ويؤيد مـن ورائها السياسة الفرنسية، ومنها ما يؤيد الحركـة الوطنيـة والنزعة الإسلامية والارتباط بالدولة العثمانية، وكـل منهـا يعرض وجهة نظره في شيء من الهدوء والرزانة والوقـار.

فلما طلع "الأستاذ" دعا إلى أن مصر للمصريين، لا لتركيـا ولا للأوربيين، وناصر الحركة الوطنيـة والالتفـاف حـول الخديوي أمير البلاد، ودعا الذين غلبهم الخوف بعد الاحتلال أن يبرزوا من مكامنهم، ويمسحوا الخوف عنهم، ويتصـلوا بالجمهور ليوقظوه، ودعا إلى تأليف الأحزاب حتى يكون كل جريدة حزبها، ولكل حزب برنامجه، ولم يسلك سبيل الهدوء كما سلكه معاصروه، بل كان حـادا عنيفًـا، والحـدة منـه استتبعت الحدة من الجرائـد الأخـرى، والغضـب يبعـث الغضب، والصوت العالي يبعث في الـرد عليـه الصـوت العالي، فتميزت الجرائد بعضها عن بعـض فـي وضـوح وجلاء.

وكانت هذه الحدة وهذا الجدل المتتابع في المسائل العامـة أكبر موقظ للرأي العام النائم، يفهمه موقفه وما يضره ومـا ينفعه، وأي غاية يريد منه هؤلاء وهؤلاء، ومواطن ضـعفه، وكيف السبيل إلى قوته، وللنديم الفضل الكبير في ذلك.

وكانت جريدة "الأستاذ" هي الأستاذ لمصطفى كامل، تعلم منها الاتجاه والنغمة، وإن اختلفا من حيث الثقافة والأسـلوب بحكم الزمن والأحداث والظروف.

نعم كان في "النديم" شيء من التهريج كالذي رأيناه. وكان من تهريجه أنه كان في أول مرة يرتدي الثياب الإفرنجيـة، فلما ظهر بعد الاستخفاء لبس الجبة والقفطان، واعتم بعمامة خضراء، وادعى أنه شريف إدريسي ينتسب إلى الحسن بـن علي، وكثير من الواقفين على الحقيقة ينكر ذلك، وربما دعاه إلى هذا شعوره بمركب النقص، من حيـث نشـأته الفقيـرة المتواضعة، وما مرن عليه من التصنع أيام الاستخفاء، وحالة الوسط الذي عاش فيه من أنه لا يمجـد إلا ذا الثـراء أو ذا الحسب – ومع هذا فالعظيم يقدر بكله لا ببعضه.

كانت عظمته في ذكائه وقوة لسنه. وقال فيـه المرحـوم أحمد باشا تيمور: "كان شهي الحديث، حلو الفكاهة، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز، لقيته مرة في آخر إقامته بمصـر فرأيت رجلاً في ذكاء إيـاس، وفصـاحة سـحبان، وقـبح الجاحظ. أما شعره فأقل من نثره، ونثره أقـل مـن لسـانه، ولسانه الغاية القصوى في عصرنا هذا.

كان السيد جمال الدين يعجب بقـوة حجـة النـديم فـي المناظرة والجدل، وسرعة بديهتـه، وشـدة عارضـته [1]، ووضوح دليله، ووضعه الألفاظ وضعا محكما بإزاء معانيها إن خطب أو كتب.

ثم هو شجاع لا يخاف، يلذه مواجهة العظمـاء ومنازلـة الكبراء في غير خوف ولا وجل، إلى تواضع مـع العامـة ومضحكاتهم ومؤانسته وملاطفتهم، لا يعبأ بالقول ولا يخاف البطش، فإذا نزل أحد وسلط عليه لسانه كانت الكارثة، نازل الخديوي توفيق والاحتلال، وأبا الهدي الصيادي، ولكل جاهه وسلطانه الذي أذل أعناق الكثيرين، كل ذلك وهو فقير يعيش من يده إلى فمه، ما أتاه أتلفه، وما وصل إلـى يـده بـدده، معتمدا على ربه الذي يرزقه كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانًا.

ضعيف الجسم كثير العلل، وربما كان ذلك هو السبب في موت أولاده جميعا في طفولتهم، فقد رزق قبـل الاسـتخفاء بمحمد، وعثمان، وإلياس، وفاطمـة، وعائشـة، وسـكينة،

---

(١) شدة العارضة: قوة البيان وسرعة البديهة.

وخديجة. كما رزق أيام الاستخفاء بحفصة وريا. وكلهم لـم يعش طويلاً. ومع هذا فهو – على مرضه – دائـب العمـل دائم الحركة، لا يعتريه كلال ولا ملال، يود أن يخلـد اسـمه بالعمل، بعد أن حرم تخليد اسمه بالمولد.

أعد نفسه إعدادا عظيما بكثرة الخبرة وسعة التجربة، فكان كما حدث عن نفسه: "أخذت عن العلماء، وجالست الأدبـاء، وخالطت الأمراء، وداخلت الحكام، وعاشرت أعيان الـبلاد، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحين والمهـن الصـغيرة. وأدركت ما هم فيه من جهالة، ومم يتألمون، وماذا يرجـون، وخالطت كثيرا من متفرنجة الشرقيين، وألممت بما انطبع في صدورهم من أشعة الغربيين. وصاحبت جما مـن أفاضـل الشرقيين المتعلمين في الغرب، وعرفت كثيرا من الغربيين، ورأيت أفكارهم – عالية أو سافلة – فيما يختص بالشرقيين، والغاية المقصودة لهم، واختلطت بأكابر التجار، وسبرت مـا هم عليه من السير في المعاملة أو السياسة. وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنسا ووطنًا ودينًا، واشتغلت بقـراءة كتب الأديان على اختلافهـا، والحكمـة والتـاريخ والأدب، وتعلقت بمطالعة الجرائد مدة، واسـتخدمت فـي الحكومـة

المصرية زمنًا، واتجرت برهة، وفلحت [1] حينا، وخـدمت الأفكار بالتدريس وقتًا، وبالخطابة والجرائد آونة – واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذي وصلت إليـه بعنـاء كسائي نحول الشيخوخة في زمن بضاضة الصبا، وتـوجني بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء. فصـورتي تريك هيئة أبناء السبعين، وحقيقتي لم تشهد من الأعـوام إلا تسعة وثلاثين".

وربما كان أعظم شيء فيه ثباته على مبدئه، بـاع نفسـه لأمته حسبما يعتقد الخير لها، ولم يتحول عن ذلك على كثرة من تحول في مثل مواقفه. هؤلاء زعماء الثـورة العرابيـة حاولوا أول أمرهم ينكروا ما فعلوا، فلما لم ينفعهم إنكـارهم وعوقبوا عادوا وخضعوا، وعاشوا في مسألة ومهاودة. أمـا هو فلم ينكر ما قال. ولقي في مخبئه الأهوال. وكان جـديرا بمن لقي ذلك كله أن يهدأ، وإذا هدأ فلا لوم عليه. ولكنه ظل

---

(١) خماس: ضامرة البطون لخلوها من الطعام: بطان: عظيمة البطون لامتلائها بالطعام.

يجاهد، وينفي فيجاهد، ويعفي عنه فيجاهد. ويحذر فلا يحذر، ويطمع فلا يطمع، حتى لقى مولاه.

رحمه ا .

السيد عبد الرحمن الكواكبي

(١٢٦٥ - ١٣٢٠هـ = ١٨٤٨ - ١٩٠٢م)

- ١ -

من بيت في "حلب" يعتز بنسبه وحسبه وعلمه وجاهه وماله، فأسرة الكواكبي كانت فيها نقابة الأشراف في حلب، ولها مدرسة تسمى المدرسة الكواكبية، وأبوه أحد المدرسين في الجامع الأموي بحلب والمدرسة الكواكبية فيها.

تعاون على تربية بيته وما في تقاليده من عزة وإباء وشمم وأنفة من الصغائر وخالة له تعهدته بعد وفاة والدته وهو صغير. وكانت من نوادر النساء في الشرق، عرفت بالأدب والكياسة وكبر العقل. فطرته التي فطر عليها ميل إلى الحق، وحب الخير والاستجابة للتربية الصالحة.

كل هذا جعل منه رجلاً يستعصي على ناقد الأخلاق نقده، مؤدب اللسان فلا تؤخذ عليه هفوة، يزن الكلمة قبل أن ينطق بها وزنًا دقيقًا، حتى لو ألقى عليه السلام لفكر في الإجابة،

متزن في حديثه، إذا قاطعه أحد سكت وانتظـر حتـى يـتم حديثه، ثم يصل ما انقطع من كلامه، فيؤدب بذلك محدثـه، نزيه النفس لا يخدعها مطمع ولا يغريها منصب، شجاع فيما يقول ويفعل، مهما جرت عليه شجاعته من سجن وضياع مال وتشريد، وهو – مع أنفته وعزته وصلفه[1] على الكبـراء – متواضع للبائسين والفقراء، يقف دائما بجانب الضعفاء، يشع على من يجالسه الاتزان والتفكير الهـادي، وحـب الحـق ونصرة المبدأ، والتضحية للفضيلة.

تعلم كما كان يتعلم ناشئة زمانه الدينيون، لغة عربية ودين في مدرسة أسرته بحلب – "المدرسة الكواكبيـة" – وكانـت مدرسة تسير على الطريقة الأزهرية فيما يقرأ من كتب، وما يتبع من منهج، ولكنه أكمل نفسه بقراءتـه بعـض العلـوم الرياضية والطبيعية، وأحضر له والده من الفارسية والتركية، وطالع بنفسه كثيرا من الكتب التاريخيـة، وعنـى بدراسـة قوانين الدولة العثمانية.

---

(١) صلفه: زهوه وتكبره.

فلما أتم دراسته انغمس في الحيـاة العمليـة، وتنوعـت أعماله، وتباينت اتجاهاته، فمن محرر لجريدة رسمية، إلـى رئيس كتاب المحكمة الشرعية، على قاض شرعي في بلـدة من البلاد السورية، إلى رئيس البلدية. ثم هـو بـين الحـين والحين يعتزل الوظائف الحكومية فينشئ لنفسه جريـدة فـي "حلب" اسمها الشهباء، أو يشتغل بالأعمال التجارية، أو يقوم بمشروعات عمرانية، ومن كل ذلك يستفيد خبـرة وتجربـة بالحياة. وفي كل الأعمال الحكومية والحرة يصطدم بنظـام الدولة، وباستبداد الحكام، وفساد رجـال الإدارة، فينـازلهم وينازلونه، ويحاربهم ويحاربونه، وينتصـر علـيهم حينًـا، وينتصرون عليه حينًا، وسـلاحه دائمـا النزاهـة والعـدل والاستقامة، وسلاحهم دائما الدسائس واتهامه بخروجه علـى النظام، ودعوته للشغب، وما شاكل ذلـك ممـا هـو عـادة الظالمين، وكانت البلاد التي يعيش فيها موبوءة بحكم "عبـد الحميد" لا يستطيع أن يعيش فيها حر صريح، ولا ينجح فيها تاجر نزيه، ولا موظف جريء مستقيم، وهـذا النـوع مـن الحكم عدو كل كفاية، وقاتل كل نبوغ!

ارتفع شأنه في بلده، فكان يقصـده أصـحاب الحاجـات لقضائها، والمشـاكل لحلهـا، ورجـال الحكومـة أنفسـهم يستشيرونه فيما غمض عليهم، وهو في كل ذلك جريء فيما يقول، لا يقر ظالما على ظلمه، ولا يسالم جـائرا لمنصـبه أو جاهه. من أجل هذا غاضب "عارف باشا" والـي "حلـب" وأخذ يعدد سيئاته وينقم عليه تصرفاته، ويحرض الناس على رفع صوتهم معه بالشكوى منه لرؤسائه في الآستانة، فـانتقم "عارف باشا" لنفسه، فزور على "الكواكبي" أوراقـا واتهمـه بأنه يسعى لتسليم "حلب" لدولـة أجنبيـة، وحبسـه وطلـب محاكمته، فبذل الكواكبي ورجاله جهدا كبيرا ليحاكم في ولاية غير ولاية "حلب"، وحوكم في بيـروت، فحكـم ببراءتـه، وظهرت خيانة الوالي ومكايده فعزل.

وكان من أعداء "الكواكبي" أيضا "أبو الهـدى الصـيادي" الذي سبق وصفه في ترجمة "عبد الـله نديم" لأن "الكـواكبي" أبى الاعتراف بصحة نسبه. ولاعتداء "أبي الهدى" على بيتهم بأخذ نقابة الأشراف لنفسه منهم، فكان "أبو الهدى" أيضا يدس له، ويغري ولاة الأمر به.

فكان من نتيجة محاكمته على التهمة التـي اتهمـه بهـا "عارف باشا"، ومن معاكسة "أبي الهدى" وأعوانه له حتى في تجاربه، إن خسر ألوف الجنيهات من ماله، فاحتمـل ذلـك بنفس قوية لا تجزع ولا تتحول.

وأنصع صفحة في تاريخ حياته قوة شعوره بفسـاد حـال المسلمين، وتخصيص جزء كبير من حياتـه فـي تعـرف أحوالهم في جميع أقطـار الأرض، وتشـخيص أمراضـهم وتلمس العلاج لهم، فعكف على مطالعة تاريخهم في ماضيهم وحاضرهم، وما كتبه الكتاب المحدثون في ذلك فـي الكتـب والمجلات والجرائد، ودرس أحوال المسلمين فـي المملكـة العثمانية. ثم رحلته إلى كثير من بلاد المسلمين، فساح فـي سواحل إفريقيا الشرقية، وسواحل آسيا الغربية، ودخل بـلاد العرب وجال فيها، واجتمع برؤساء قبائلها، ونـزل بالهنـد وعرف حالها، وفي كل بلد ينزلها يدرس حالتها الاجتماعيـة والاقتصادية، وحالتها الزراعية، ونوع تربتها وما فيها مـن معادن ونحو ذلك، دراسة دقيقة عميقة، ونزل مصـر وأقـام بها، وكان في نيته رحلة أخرى إلى بلاد المغرب يـتم فيهـا دراسته. ولكنه عاجلته منيته.

نشر نتيجة دراسته في مقـالات كتبـت فـي المجـلات والجرائد، ثم جمعت فـي كتـابين: اسـم أحـدهما "طبـائع الاستبداد"، والآخر "أم القرى": الأول فـي نقـد الحكومـات الإسلامية، والثاني أغلبه في نقد الشعوب الإسلامية.

لقد كان الحديث في مثل هذه الموضوعات التـي مسـها "الكواكبي" في "طبائع الاستبداد" و"أم القرى" من الموضوعات المحرمة، لأنها تمس نظام الحكم من قريب، وتفهم الشـعوب حقوقهم وواجباتهم، وتقفهم علـى منـاحي الظلـم والعـدل، وتهيئتهم للمطالبة بالحقوق إذا سلبت، والقيام بالواجبـات إذا أهملت، وهذا أبغض شيء لدى الحاكم المستبد، لذلك رأينـا الشرق من بعد ابن خلدون أغلق هذا الباب، ولم يفتحـه أي باحث بعده، وصار كتاب ابن خلدون مقدمـة بـلا نتيجـة. والعلوم التي حوفظ عليها واستمرت دراستها هي علم النحـو والصرف واللغة والفقه، لأنها لا تمس الحاكم من قريب ولا بعيد، ولا تفهم الناس أين هم من حاكمهم وأين حاكمهم منهم. والأدب مداح للملوك والحكام، يجعل ظلمهم عدلا وفسـادهم صلاحا، فإذا أعطاهم الحاكم قليلاً مما سلبه من أمتهم هللـوا وكبروا، وعجبوا من كرمه الحاتمي، وسخائه الذي لا نظيـر

له. والمؤرخون لا يؤرخون إلا شخصه في حياته وأعماله وحروبه وزوجاته وأولاده، أما الشعب فلا شيء إلا أن يكون مزرعة للحكام. وأحب علم إلى الحكام المستبدين وادعاهم لنصرته هو ما لا يتصل بالحكم ونظامه، ورجال الدين المقربون هم الذين يدعون إلى التسليم بالقضاء والقدر، ويستطيعون أن يولدوا المعاني من مثل "السلطان ظل ا في أرضه". أما علم الاجتماع وعلم السياسة والاقتصاد فلم يعرفه الشرق بعد ابن خلدون بتاتًا.

كان هذا في الشرق، على حين أن الغربيين بدأوا بعد ابن خلدون يبحثون في المجتمعات بحثًا واسعا، يتعرفون علل الجماعات وأمراضها وأنواع الحكومات ومزايا كل شكل وعيوبه، ويتحررون من القيود، ولا يعبثون بالتضحيات في سبيل الحريات، ويبني لاحقهم على ما وصل إليه سابقهم.

وبلغ الضيق في الشرق منتهاه في عهد السلطان عبد الحميد، ولكن شدة الضغط تولد الانفجار، والقسوة تفتق الحيلة. وتوالي الاضطهاد يولد البغضاء، فكثرت في هذا العهد الجمعيات السرية تعمل لتحرير البلاد العثمانية من الظلم، وتعمل لوضع نظام ديمقراطي لا يكون فيه السلطان

الحاكم بأمره، وفر كثير من العثمانيين إلى أوربا يدرسـون نظام الحكم الأوربي وما وصلت إليه أوربـا مـن البحـوث الاجتماعية، وأخذوا يكتبون ذلك في جرائدهم ومجلاتهم التي يحررونها خارج الحدود العثمانية، ومنها تتسرب إلى الـبلاد نفسها. وأخذت مصر بعد انفصالها من حكم العثمانيين تؤوي الأحرار، وتؤيد القول في نقد نظام الحكـم، وظهـرت فـي الجرائد والمجلات مقالات بالعربيـة فـي تشـريح أحـوال الجماعات وأصول الحكومات، وترجم إلى العربية "أصـول النواميس والشرائع" لمنتسـكيو. وبـدأت موجـات البحـث الاجتماعي في أوربا تصل إلى الشرق من طريق الترجمـة وطريق المثقفين في أوربا.

في هذا الوسط طلع الكواكبي، وكان ظهوره بكتابيه جرأة كبيرة. لقد استفاد مما نقل عن الغرب، ولم يكن يعرف لغـة أوربية، إنما يعرف العربية والتركية والفارسية، فاستفاد مما نقل إليها، ومما كان يترجم له في هذا الباب خاصـة. وقـد ظهر أثر هذا الاقتباس في كتابه "طبائع الاستبداد". أما كتابه "أم القرى" فبحث مبتكر يدل على كبر عقله، وقوة تفكيـره، وسعة اطلاعه، وصدق غيرته على العالم الإسلامي.

أما كتاب "طبائع الاستبداد"، فقد نشر – أولاً – مقالات في بعض الصحف عندما كان في مصر سنة ١٣١٨هـ، ثم جمعها في كتاب وقال في أوله:

"إني نشرت في بعض أبحاثًا علمية سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، منها ما درسته، ومنها ما اقتبسته، غير قاصد بها ظالما بعينه، ولا حكومة مخصصة، إنما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين، عسى أن يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه، فلا يعتبون على الأغيار، ولا على الأقدار، ثم أضفت إليها بعض زيادات، وحولتها إلى هيئة هذا الكتاب".

وقد اقتبس فيه كثير من أقوال "الفيري" ولا أعرف كيف وصلت إليه وألفيري، كاتب إيطالي عاش من سنة ١٧٤٩ – ١٨٠٣، من بيت نبيل وقد ساح في أوربا نحو سبع سنوات، ودرس كتب فولتير وروسو ومنتسكيرو، وتشبع بآرائهم الحرة وتعشق الحرية وكره الاستبداد أشد الكره، ووجه أدبه للتغني بالحرية ومناهضة الاستبداد، ينطق بذلك أبطال رواياته، ويبثه في كتاباته. ولكن الكواكبي هضمها وعدلها

بما يناسب البيئة الشرقية والعقلية الإسلامية، وزاد عليها من تجاربه وآرائه.

- ٣ -

وكتاب "طبائع الاستبداد" يدور حول تعريف الاستبداد بأنه "صفة للحكومة المطلقة العنان، التي تتصرف في شئون الرعية كما تشاء، بلا خشية حساب ولا عقاب". ويأتي هذا من كون الحكومة مطلقة التصرف، ولا يقيدها قانون ولا إرادة أمة" أو أنها مقيدة بنوع من ذلك ولكنها تملك بنفوذها إبطال هذه القيود والسير على ما تهوى، والحكومة ميالة بطبعها إلى الاستبداد، لا يصدها عنه إلا وضعها تحت المراقبة الشديدة ومحاسبتها محاسبة لا تسامح فيها، وإلا قوة الرأي العام وعظمة سلطانه.

والمستبد يتحكم في شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدي، فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس، يسدها عن النطق بالحق ومطالبتها به.

والمستبد عدو الحق، وعدو الحرية وقاتلها.

والمستبد يود أن تكون رعيته بقرا تحلب، وكلابا تتذلل وتتملق، وعلى الرعية أن تدرك ذلك فتعرف مقامها منه: هل خلقت خادمة له، أو هي جاءت به ليخدمها فاستخدمها؟ والرعية العاقلة مستعدة أن تقف في وجه الظالم المستبد، تقول له أريد الشر، ثم هي مستعدة لأن تتبع القول بالعمل، فإن الظالم إذا رأى المظلوم قويا لم يجرؤ ظلمه.

وقد بحث بحثًا مستفيضا في علاقة الاستبداد بالدين، ونقل عن الإفرنج رأيهم في أن الاستبداد في السياسة متولد من الاستبداد في الدين أو مساير له. فكثير من الأديان تبث في نفوس الناس الخشية من قوة عظيمة لا تدرك كنهها العقول، وتهددهم بالعذاب بعد الممات تهديدا ترتعد منه الفرائص[1]، ثم تفتح بابا للخلاص والنجاة بالالتجاء إلى الأحبار والقسس والمشايخ، بالذلة لهم، والاعتراف أمامهم، وطلب الغفران منهم. والمستبدون السياسيون يتبعون هذه الطريقة فيسترهبون الناس بالتعالي والتعاظم، ويذلونهم بالقهر والقوة

---

(١) الفرائص جمع فريصة وهي: لحمة بين الجنب والكتف ترتعد عند الفزع.

وسلب الأموال، حتى لا يجدوا ملجأ إلا التزلف لهم وتملقهم!

وعوام الناس يختلط عليهم في أذهانهم الإله المعبود والمستبدون من الحكم، فيتشابه عندهم استحقاق التعظيم، وينزهونهم عن سؤالهم عما يفعلون ولا يرون لهم حقًا في مراقبتهم على أعمالهم، كما أنه ليس لهم حق في مراقبة ا فيما يفعل!! ولهذا خلعوا على المستبد صفات ا كولي النعم، والعظيم الشأن، والجليل القدر، وما إلى ذلك! وما من مستبد سياسي إلا ويتخذ له صفة قدسية يشارك فيها ا أو تربطه برباط مع ا ولا أقل من أن يتخذ بطانة من أهل الدين يعينونه على ظلم الناس باسم ا !!

ولقد رأى "الكواكبي" أن الإسلام في جوهره الأصيل لا ينطبق عليه هذا القول، فهو مبني على قواعد الحرية السياسية متوسطة بين الديمقراطية والأرستقراطية، فهو مؤسس على أصول ديمقراطية (أي المراعاة التامة للمصلحة العامة)، وعلى شورى أرستقراطية، أي شورى الخواص، وهم أهل الحل والعقد، فالقرآن مملوء بتعاليم تقضي بأمانة الاستبداد، والتمسك بالعدل، والخضوع لنظام الشورى، من مثل: "وشاورهم في الأمر"، وأمرهم شورى بينهم" حتى في

القصص، من مثل: "ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون". ومظهر هذا كان في أيام النبي ﷺ والخلفاء الراشدين. ثم لا يعرف الإسلام سلطة دينية، ولا اعترافًا، ولا بيع غفران، ولا منزلة خاصة لرجال الدين. ولكن دخل عليه من الفساد ما دخل على كل دين، فتفرقت كلمة المسلمين وانقسموا شيعا، وتحول الحكم من نظام شورى إلى الاستبداد، فصغرت نفوس الناس وخفت صوتهم، وأضاعوا مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو المبدأ الذي به يراقب أولو الأمر في الأمة، فصار أمر المسلمين إلى ما نرى.

ولم يتعرض "المؤلف" للرد على الشطر الأول، وهو ما يوحيه تصوير ا بالقوة والعظمة والسيطرة من خضوع النفوس للمستبد. وعندي أن الإسلام يجعل "لا إله إلا ا " محور الدين، تتكرر في كل آذان وفي كل مناسبة، كان كفيلا أن يذكر النفوس دائما بأن العزة وحده، وأن النفوس لا يصح أن تذل لأحد سواه، وأن هذه الكلمة توحي بالضعف أمام ا والقوة أمام من سواه. ولكن بتوالي القرون، ودخول الدخيل من العقائد، أصبحت "لا إله إلا ا " عند أكثر المسلمين كلمة جوفاء لا روح فيها، تبعث الضعف ولا تبعث

القوة، وتبيح أن يشرك مع ا   الحـاكم المسـتبد والـرئيس المستبد، بل المال والجاه والمنصب، فكـل هـذه وأمثالهـا أصبحت آلهة مع ا ، وفقد المدلول الحق للا إله إلا ا !!

ثم أبان أن الحاكم المستبد يخشى العلم، لأن العلـم نـور، وهو يريد أن تعيش الرعية في الظلام، لأن الجهل يمكنه من بسط سلطانه، (وروي أن حاكما مستبدا شرقيا كان له مـرب سويسري فقال له يوما بعد أن تأمر[1]: "ليتك تعني بتربيـة الشعب وتعليمه!" فقال الأمير: "كلا! إنني إن علمتـه صـعب علي حكمه"!).

والحاكم المستبد لا يخشى علوم اللغة والأدب، ولا علـوم الدين المتعلقة بالمعاد[2]، بل هو يستخدم العلمـاء مـن هـذا القبيل لتأييده في استبداده، بسد أفواههم بلقيمات مـن فتـات مائدته، إنما ترتعد فرائصه من الفلسـفة العقليـة، ودراسـة حقوق الأمم، وعلوم السياسة والاجتماع، والتاريخ المفصـل، والقدرة على الخطابة الأدبية، ونحو ذلك من العلوم التي تنير

---

(١) تأمر: تولى الحكم.

(٢) المعاد: عودة الحياة في الدار الآخرة.

الدنيا وتثير النفوس على الظالم، وتعرف الإنسان مـا هـو الإنسان، وما هي حقوقه، وكيف يطلبها، وكيف ينالها، وكيف يحفظها، فإن المستبد سارق، والعلماء من هذا القبيل يكشفون السرقة.

ولذلك يكون الحاكم المستبد وهؤلاء العلماء فـي صـراع دائم، العلماء يحاولون الإنارة، والمستبد يحـاول إطفاءهـا، وكلاهما يحاول كسب عامـة الشـعب، فالمسـتبد يخفـيهم ليستسلموا، وهؤلاء العلماء ينيرونهم ليقولوا ويفعلوا.

والحاكم المستبد تسره غفلة الشعب لأنه يتمكن بغفلتهم من الصولة عليهم: يغصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء حيـاتهم ويضرب بعضهم ببعض فيصفونه بحسن السياسة والكياسـة، ويسرف في أموالهم فيقولون إنه كريم، ويقتلهم ولا يمثل بهم فيقولون إنه رحيم، وإن نقم عليه بعض الأباة [1]، قاتلهم بهم كأنهم بغاة [2]!!.

---

(١) الأباة: جمع أبي. وهو من يأبى الظلم ويستنكره.

(٢) البغاة: جمع باغ، وهو المختدي والمنحرف عن الحق.

والحاكم المستبد يخاف رعيته كما تخافه رعيته، بل خوفه منهم أشد، لأنه يخافهم عن علم، وهم يخافونه عن جهل. وقد اعتاد المؤرخون المحققون قياس درجة استبداد الحاكم بمقدار حذره، ودرجة عدله بمقدار طمأنينته، كما يستدلون على أصالة الاستبداد في الأمة بترف الحكام. وإمعانهم في البذخ، وكثرة الحجاب. ومن دلائل تغلل الاستبداد في الأمة استكناه لغتها، فإن كثرت فيها ألفاظ التعظيم وعبارات الخضوع كاللغة الفارسية، دلت على تاريخها القديم في الاستبداد. وإن قلت – كالعربية قبل امتزاجها بغيرها دلت على الحرية.

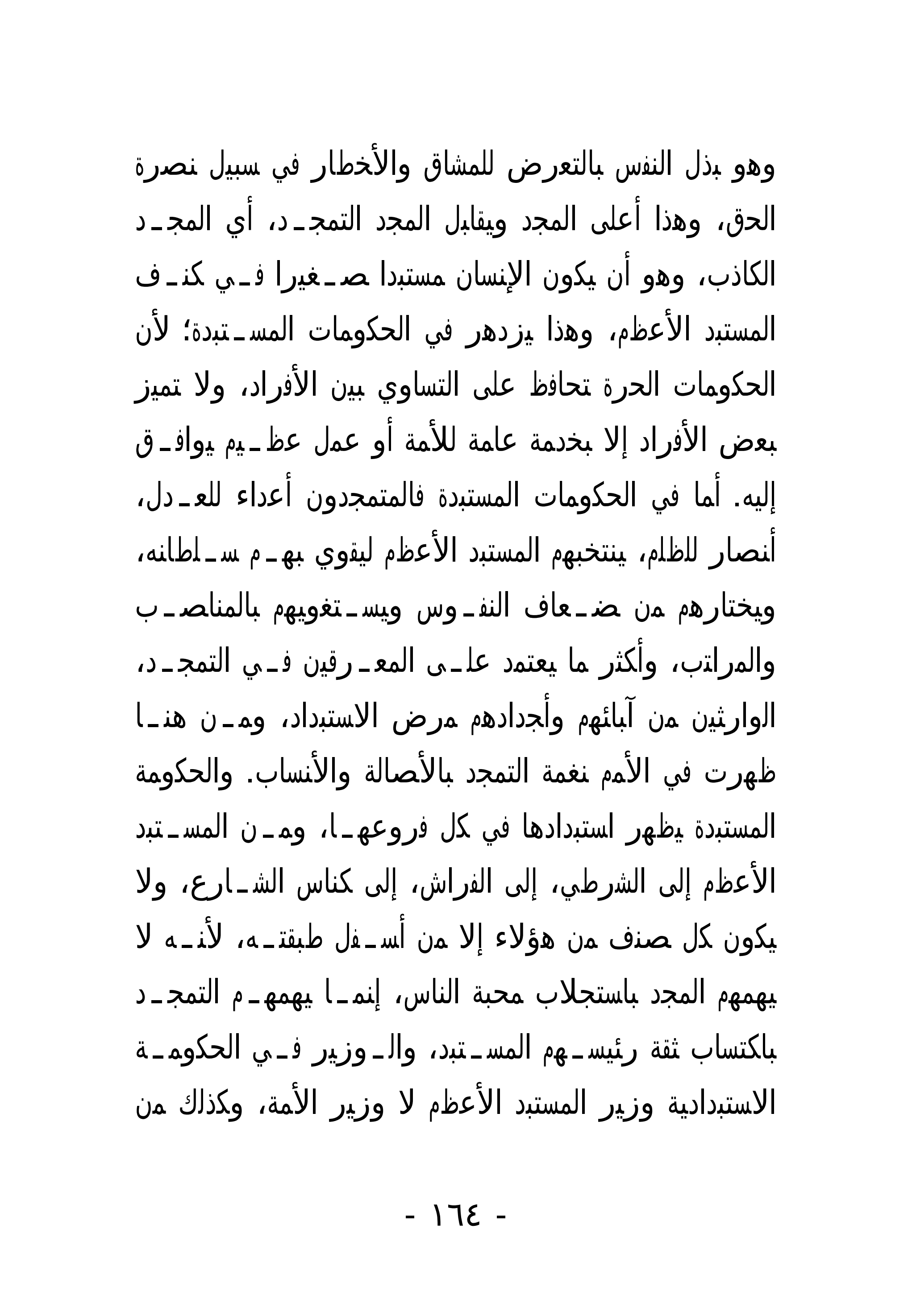
وعلى الجملة فأخوف ما يخاف المستبد من العلم، العلم الذي يعلم أن الحرية أفضل من الحياة، والشرف أعز من المنصب والمال، والحقوق وكيف تحفظ، والظلم وكيف يرفع، والإنسانية وقيمتها والعبودية وضررها.

وقد كان "الكواكبي" في كل هذا يقرأ نتائج القرائح التي كتبت في الاستبداد، وينظر إلى الدولة العثمانية في عهده ويستملي منها آراءه وأحكامه.

ثم عرض للاستبداد والمجد، ويعني بالمجد رغبة الإنسان أن تكون له منزلة حب واحترام في قلوب الناس، وهو مطلب

طبيعي شريف، ويبلغ عند بعض الأفـراد درجـة تجعلهـم يتساءلون: أيهما أقوى، الحرص على المجد أم الحرص على الحياة؟ و"الكواكبي من قبيل من يرى الحرص علـى المجـد أقوى وأوجب من الحرص على الحياة، ولذلك عاب على ابن خلدون رأيه في تقديم الحرص على الحياة عندما نقـد ابـن خلدون الإمام الحسين بن علي وأمثاله، وقال إنهم يعرضـون أنفسهم للموت بخروجهم في فئة قليلـة علـى الخليفـة ذي السلطان والعدد والعِدد، فيلقون بأنفسهم إلى التهلكـة. فقـال الكواكبي: إنهم معذورون، لأنهم يفضلون الموت كراما على حياة الذل التي كان يحياها ابن خلدون، وهم في ذلك ككـرام سباع الطير والوحوش التي تأبى التناسل في أقفاص الأسـر، وتحاول الانتحار تخلصا من قيود الذل. وغضبة الكـواكبي على ابن خلدون سببها عصبيته لأهل البيت، إذ كـان مـن الأشراف، وفيه نزعة لحب المجد ولو كان فيه فقد الحيـاة. فابن خلدون يتحدث بالعقل، والكواكبي يتحدث بالعاطفة.

والمجد أنواع: "مجد الكرم" وهو بذل المـال فـي سـبيل المصلحة العامة، وهو أضعف أنواع المجد، و"مجـد العلـم" وهو نشر العلم النافع برغم عوائق السلطات. و"مجد النبالـة"



وهو بذل النفس بالتعرض للمشاق والأخطار في سبيل نصرة الحق، وهذا أعلى المجد ويقابل المجد التمجد، أي المجد الكاذب، وهو أن يكون الإنسان مستبدا صغيرا في كنف المستبد الأعظم، وهذا يزدهر في الحكومات المستبدة؛ لأن الحكومات الحرة تحافظ على التساوي بين الأفراد، ولا تميز بعض الأفراد إلا بخدمة عامة للأمة أو عمل عظيم يوافق إليه. أما في الحكومات المستبدة فالمتمجدون أعداء للعدل، أنصار للظلم، ينتخبهم المستبد الأعظم ليقوي بهم سلطانه، ويختارهم من ضعاف النفوس ويستغويهم بالمناصب والمراتب، وأكثر ما يعتمد على المعرقين في التمجد، الوارثين من آبائهم وأجدادهم مرض الاستبداد، ومن هنا ظهرت في الأمم نغمة التمجد بالأصالة والأنساب. والحكومة المستبدة يظهر استبدادها في كل فروعها، ومن المستبد الأعظم إلى الشرطي، إلى الفراش، إلى كناس الشارع، ولا يكون كل صنف من هؤلاء إلا من أسفل طبقته، لأنه لا يهمهم المجد باستجلاب محبة الناس، إنما يهمهم التمجد باكتساب ثقة رئيسهم المستبد، والوزير في الحكومة الاستبدادية وزير المستبد الأعظم لا وزير الأمة، وكذلك من

تحته من أعوانه، فالهيئة كلها تتمجد ولا تمجد، وكلهم شركاء في جريمة الضغط على الأمة وظلمها. والاستبداد يقتل المجد ويحيي التمجد!!

وهذا حق، فالحكومة المستبدة تقتل فـي النفـوس العـزة الحقيقية بالمفاخرة بالأعمال النافعة، وتخلق نوعا من السيادة الكاذبة وتجعل أولي الأمر سلسلة تبدأ من المستبد الأعظم إلى الشرطي في الشارع، كل يخنع لمن فوقه ويستبد بمن تحتـه، وعلى العكس من ذلك الحكومـة الديمقراطيـة ديمقراطيـة صحيحة، فهي تشعر كل شخص في الدولـة بـالعزة التـي يحميها العدل، وبأن له نصيبا فـي حكـم بـلاده، وصـوتًا مسموعا فيما يجب أن يعمل وما يجب أن يترك وأن حكومته ليست قائمة إلا برأيه ورأي أمثاله، إن شعروا يوما بجورهـا أسقطوها، سلطة الرأي العام فيها فـوق سـلطان الحكومـة والبرلمان وكل سلطان.

ثم عرض للاستبداد والمـال، ويعنـي بـذلك الحكومـة الاستبدادية وأثرها في الثروة أو الحالة الاقتصادية في البلاد. وهو في هذا الموضوع يرى الخير في نـوع معتـدل مـن الاشتراكية، نعم لا ينبغي أن يتساوى العالم الذي أنفق زهرة

حياته في تحصيل العلم النافع، أو الصانع الماهر في صـنعة مفيدة، وذلك الجاهل الخامل النائم في ظل الحـائط، ولكـن العدالة تقضي أن يأخذ الراقي بيد السافل والغني بيد الفقيـر، فيقربه من منزلته، ويقاربه في معيشته، وقد مال الإسلام إلى هذا النوع، ففرض الزكـاة (٢,٥%) مـن رءوس الأمـوال تعطي للفقراء وذي الحاجة، وحرم الربا، لأنـه وإن أجـازه الاقتصاديون لأسباب معقولة اقتصـاديا (للقيـام بالأعمـال الكبيرة، ولأن الأموال المتداولة في السوق لا تكفي للتداول، فكيف إذا أمسك المكتنزون قسما منهـا، ولأن كثيـرا مـن القادرين على العمل لا يجدون رءوس المـال) فـإن الـدين ورجال الأخلاق ينظرون إليه من حيث ضـرره الأخلاقـي، لأنه متى انتشر قسم الناس إلى عبيد وسادة، وكان سببا فـي ضياع استقلال الأمم الضعيفة.

والحكومة الاستبدادية سبب في اختلال نظام الثروة فهـي تجعل رجال السياسة والدين ومن يلحق بهم يتمتعـون بحـظ عظيم من مال الدولة، مع أن عددهم لا يتجاوز الواحد فـي المائة، وهي تخصص المال الكثير لترف المستبد وسـرفه،

وتغدق على صنائعها[1]، ومن يستخدم لتحصيل شهواتها، ومن يعنيها على طغيانها، وسائر أفراد الشعب في شقاء وبؤس؟

ثم الحكومات المستبدة تيسر للسفلة طرق الغنى بالسرقة والتعدي على الحقوق العامة ويكفي أحدهم أن يتصل بباب أحد المستبدين ويتقرب من أعتابه، ويتوسل إلى ذلك بالتملق وشهادة الزور وخدمة الشهوات والتجسس، ليسهل له الحصول على الثروة الطائلة من دم الشعب.

- ٣ -

عرض "الكواكبي" بعد ذلك لأثر الاستبداد في فساد الأخلاق، فالاستبداد يتصرف في أكثر الميول الطبيعية والأخلاق الفاضلة فيضعفها أو يفسدها. فهو يفقد الإنسان عاطفة الحب، فهو لا يحب قومه لأنهم عون الاستبداد عليه، ولا يحب وطنه لأنه يشقى فيه، وهو ضعيف الحب لأسرته

---

(١) الصنائع، جمع صنيعة، وهو: من تربيه وتخرجه وتختصه بعملك.

لأنه ليس سعيدا فيها، وهو لا يركن إلى صديقه لأنه قد يأتي عليه يوم يكون فيه عونًا على الاستبداد ومصدر شر له.

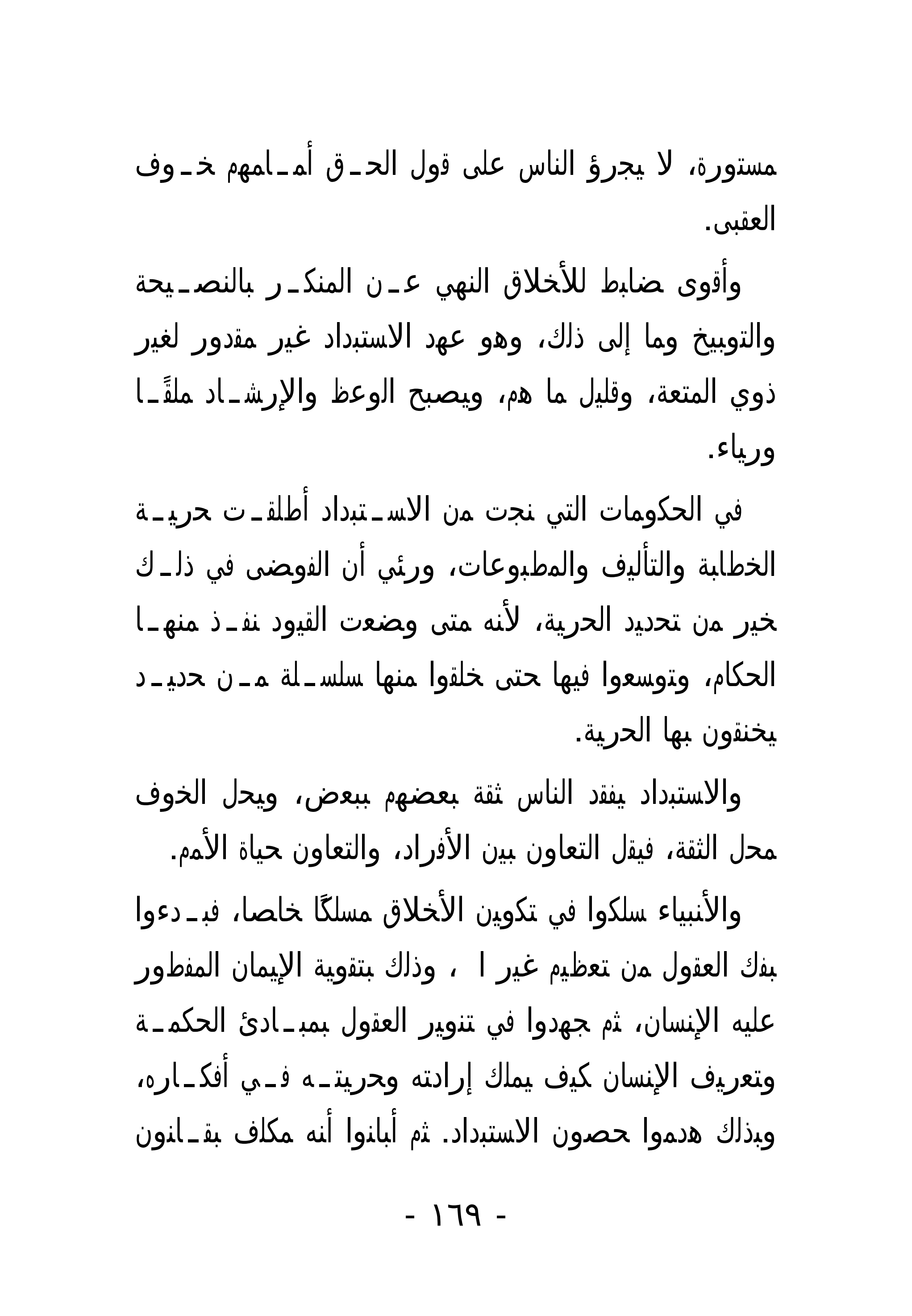
الإنسان في ظل الاستبداد لا ينعم بلـذة العـزة والشـمم والرجولة، فلا يذوق إلا اللذة البهيمية لأنه لا يعرف غيرها.

والاستبداد يلعب بالأخلاق، فيجعل من الفضائل رذائـل، ومن الرذائل فضائل: فيسمي النصـح فضـولاً، والشـهامة تجبرا، والحمية طيشًا، والإنسانية حمقًا، والرحمـة مرضـا، كما يسمي النفاق سياسة، والتحايل كياسة، والـدناءة لطفًـا، والنذالة دماثة وظرفًا.

والاستبداد أفسد عقول المؤرخين، فسموا الجبابرة الفاتحين عظماء أجلاء، مع أنه لم يصدر عنهم إلا الإسراف في القتل والتخريب، ثم أشادوا بذكر السلف تملقًا للخلف.

والاستبداد يفقد الثبات في الخلق، فقد يكون الرجل شجاعا كريما، فيصبح بعوامل الاستبداد جبانًا بخيلاً، ولا أخلاق مـا لم تكن ثابتة مطردة!

وأول ما يؤثر الاستبداد في أخلاق الناس أنه يرغم الأخيار منهم على ألفة الرياء والنفاق، ويعين الأشرار على فجورهم، آمنين حتى من الانتقاد والفضيحة، لأن أكثر أعمالهم تظـل



مستورة، لا يجرؤ الناس على قول الحـق أمـامهم خـوف العقبى.

وأقوى ضابط للأخلاق النهي عـن المنكـر بالنصـيحة والتوبيخ وما إلى ذلك، وهو عهد الاستبداد غير مقدور لغير ذوي المتعة، وقليل ما هم، ويصبح الوعظ والإرشـاد ملقًـا ورياء.

في الحكومات التي نجت من الاسـتبداد أطلقـت حريـة الخطابة والتأليف والمطبوعات، ورئي أن الفوضى في ذلـك خير من تحديد الحرية، لأنه متى وضعت القيود نفـذ منهـا الحكام، وتوسعوا فيها حتى خلقوا منها سلسـلة مـن حديـد يخنقون بها الحرية.

والاستبداد يفقد الناس ثقة بعضهم ببعض، ويحل الخوف محل الثقة، فيقل التعاون بين الأفراد، والتعاون حياة الأمم.

والأنبياء سلكوا في تكوين الأخلاق مسلكًا خاصا، فبـدءوا بفك العقول من تعظيم غير ا ، وذلك بتقوية الإيمان المفطور عليه الإنسان، ثم جهدوا في تنوير العقول بمبـادئ الحكمـة وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته وحريتـه فـي أفكـاره، وبذلك هدموا حصون الاستبداد. ثم أبانوا أنه مكلف بقـانون

الإنسانية، واتباع المبادئ التي ترقيه وترقي جنسه – وكذلك فعل السياسيون الأقدمون من الحكماء.

أما الغربيون المحدثون فوضعوا الأخلاق غيـر مرتكـزة على الدين، ولكن على ما أودع فطرة الإنسان مـن ضـمير وحب نظام، وساعدهم على ذلك انتشار العلم عندهم والرغبة في التقدم، واستعانوا على ذلك بالوطنية.

ثم عرض للاستبداد والتربية – والتربية تنمية الاستعداد جسما ونفسا وعقلاً وهي قادرة أن تبلغ بالإنسان أعلى حد من الرقي لو صلحت.

والحكومة العادلة تعني بتربية الأمة مـن وقـت تكـون الجنين، بل قبله، بسن قوانين للزواج الصالح، ثـم بالعنايـة بالقابلات والأطباء، ثم بفتح بيوت اللقطاء ثم بإنشاء المكاتب والمدارس وتنظيم خططها متدرجة إلى أعلـى مرتبـة، ثـم تسهيل الاجتماعات، والإشراف على المسارح، ثـم تشـجيع النوادي وإنشاء المكتبات، وإعلان شأن النوابغ بإقامة النصب ونحوها، ثم بتنمية المشاعر القوية بشتى أنواعهـا وتيسـير الأعمال وغير ذلك.

أما الحياة في الحكومات المستبدة فمجرد نماء يشبه نماء الأشجار الطبيعية في الغابات والحرجات [1]، يسطو عليها الغرض والحرق، وتحطمها العواطف والأيدي والقواصف.

في الحكومة العادلة يعيش الإنسان حرا نشيطًا يسره النجاح ولا تقبضه الخيبة، وفي الحكومة المستبدة يعيش خاملاً خامدا، ضائع القصد حائرا.

الأسير المعذب يسلي نفسه بالسعادة الأخروية، ويبعد عن فكره أن الدنيا عنوان الآخرة، وقد جنى على المسلمين علماؤهم، فأفهموهم أن الدنيا سجن المؤمن، وأن المؤمن مصاب، وإذا أحب ا عبدا ابتلاه، وهكذا مما ابتدعوه. ويتغافلون عن حديث: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا" وحديث معناه: "إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم غرسة فليغرسها"! وكل هذه المثبطات تحول الأذهان من معرفة أسباب الشقاء إلى إلقائها على عاتق القضاء والقدر. وقد أحكموا هذه المكيدة باختراع الأحاديث التي تجعل الخضوع للحاكم المستبد دينا.

---

(١) الحرجات، جمع حرجة، وهي: مجتمع الشجر.

وعلى الجملة فالتربية الصحيحة لا تمكن من ظل الاستبداد!

ثم الاستبداد – على الإجمال – يمنع الترقي، والترقي الحيوي الذي يسعى إليه الإنسان هو – أولاً – الترقي في الجسم صحة وتلذذًا، ثم الترقي في الاجتماع بالعائلة والعشيرة، ثم الترقي في القوة بالعلم والمال، ثم الترقي في الملكات بالخصال والمفاخر. وهناك نوع آخر من الترقي الروحي، وهو الاعتقاد بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى يترقى إليها سلم الرحمة والإحسان – والاستبداد بالأمة عدو ذلك كله، بل هو تحول الميل الطبيعي فيها إلى طلب التعقل، حتى لو دفعت إلى الرفعة لأبت وتألمت كما يتألم الأجهر من النور! وعندئذ يكون الاستبداد كالعلاق يمتص دم الأمة فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها، والاستبداد يجعل الأمة منحطة في الإحساس، منحطة في الإدراك، منحطة في الأخلاق، وهو يضغط عليها فتكون كدود تحت صخرة، والمشفقون عليها يجب أن يسعوا في رفع الصخرة ولو حتى بالأظافر ذرة بعد ذرة!!

وهنا ضرب مثلاً يصح أن يخطب به الخطباء في النـاس ليستيقظوا، فوضع خطبة نموذجية لتنبيه المشاعر. ثم قال: إن الرقي الذي ينشده في ظل العدل هو أن يكون الشخص أمينًا على جسمه وحياته بحراسة الحكومة التـي لا تغفـل عـن المحافظة عليه، أمينًا على ملذاته الجسمية والفكرية باعتنـاء الحكومة بإيجاد أسبابها، أمينًا على حريته فلا يعتدي عليهـا، أمينًا على نفوذه كأنه سلطان عزيز لا يمانع في تنفيذ مقاصده النافعة، أمينًا على ماله وشرفه، وما منحتـه الطبيعـة مـن مزايا، فما لم تتحقق هذه فالحكومة مستبدة ليست بيئة لترقـي شعبها.

وأخيرا ما وسائل التخلص من الاستبداد؟ يـرى هـو أن الاستبداد لا يقاوم بالقوة، إنما يقاوم باللين وبالتـدريج، ببـث الشعور بالظلم، وهذا يكون بالتعليم والتحمـيس، ذلـك لأن الاستبداد محفوف بأنواع القوات: كقوة الجند، وقوة المـال، وقوة رجال الدين، وقوة الأغنياء، فإذا قوبل بالقوة كانت فتنة تحصد الناس، وإنما الواجب المقاومة بالحكمة فـي توجيـه الأفكار نحو تأسيس العدالة. والاستبداد مع اعتماده على هذه

القوات كلها يضعف أمام الوسائل المحكمة في قلبه، كما قيل:
كم من جبار عنيد جدله [1] ملوم صغير!!

ويجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ما يحل محله، ومعرفة الغاية معرفة دقيقة واضحة، ومتى وضحت الغاية المرسومة يجب السعي في إقناع الناس بها واستجلاب رضـاهم عنهـا وحملهم على النداء بها، ويجب أن ينشر ذلك في كل الطبقات حتى يصبح عقيدة، فيتلهفوا جميعا على نيل الحرية وتحقيـق المثل الذي ينشدونه: عندئذ لا يسع المستبد إلا الإجابة طوعا أو كرها.

وقد حدد في ثنايا كتابه، ماذا يقصد بالحكومة المسـتبدة، فقال: إنها تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق، كمـا تشـمل حكومة الجميع لو منتخبا إذا استبد، بل قد يكون هذا الحكـم أضر من استبداد الفرد. ويدخل في أنواع الاسـتبداد أنـواع الاستعمار، فالمستعمر تاجر لا يرى إلا مصلحته، ولا عبرة بأسماء أنواع الحكومات إنما العبرة بحقيقتها، وكل أمة فيهـا لون من ألوان الاستبداد، ولكنها تختلف فيه كميـة وكيفيـة،

(١) جدله: صرعه.

فبعضها يمسه الاستبداد مسا خفيفًا، وبعضها تغرق فيه من قدمها إلى مفرق رأسها. والغرب سبق إلى تقدير معنى الحرية والعدالة، ولكنه لا يأخذ بيد الشرق، بل يستغله لمصلحته، وواجب الغرب أن يرعى للشرق سابق فضله، فيأخذ بيده ليخرجه إلى أرض الحياة، ويعامله معاملة الأخ لأخيه، لا السيد لعبده ليتعاونا بعد على السير بالإنسانية.

وبهذا ينتهي الكتاب، وهو فيه قوي مخلص مملوء غيرة وأسفًا وتلهفًا على رفع نير الاستبداد عن الشرق، وهو أن استمد الفكرة من الغرب، فهو يبسطها ويعدلها ويعني بتطبيقها، وقد يؤخذ عليه عصر نفسه في دائرة النظريات. وكان الكتاب يكون أوقع في النفس لو ملأه بالشواهد وما رأى وسمع من أحداث وهو معروف بسعة الاطلاع، فلو قرن النظريات بالشواهد لكان كتابه أكثر فائدة وأعم نفعا، ولكن يظهر أن قد منعه من ذلك أنه أراد أن يستتر فأخفى اسمه ولم يضعه على الكتاب، وقال في مقدمة الكتاب: إنه لم يقصد ظالما بعينه ولا حكومة مخصوصة، ولو أتى بالشواهد لدل على الحكومة التي قصدها، ودل بذلك على نفسه، وما كان في ذلك من ضرر، بل كان فيه كل النفع، ولكن الأمور

تقدر بأوقاتها وظروفها، وهو فيما اكتنفه من ظروف كان في عرضه النظريات فقط شجاعا جريئًا.

- ٤ -

أما كتابه الثاني "أم القرى" فأدل على الابتكار وأوضح في إظهار الشخصية، يقف فيه من المسلمين موقف الطبيب من المريض، يفحص داءه ويتعرف أسبابه، ويصف علاجه في أسلوب قصصي جذاب، تحدث فيه عن جمعية من المسلمين عقدت في مكة حضرها ممثل أو أكثر لكل قطر إسلامي، فعضو شامي، وعضو سكندري، ومصري ومقدسي ويمني وبصري ونجدي ومدني ومكي وتونسي وفاسي وإنجليزي ورومي وكردي وتبريزي وتتري وقازاني وتركي وأفغاني وهندي وسندي وصيني، وأسندت رياسة الجمعية للعضو المكي، والسكرتارية للسيد الفراتي – وعني به الكواكبي نفسه – واجتمعوا كلهم قبيل الحج في مكان متطرف في مكة يتداولون في حال المسلمين، وكان أول اجتماع لهم في ١٥ ذي القعدة سنة ١٣١٦هـ.

فهل كانت هذه الجمعية حقيقة أو هي من نسـيج خيالـه؟ يقول هو: إن لها أصلاً من الحقيقة، وإن الخيال تممها، فهـل هذا صحيح، أو هو من قبيل تأييد الخيال كما يفعل كثير مـن الروائيين؟ أرجح الرأي الثاني.

على كل حال انعقدت الجمعية – فيما يقـول – ووضـع الرئيس منهج البحث، وهو الكتمان، لأنه أدعى إلى إفضـاء كل ما في نفسه في صراحة، وتناسى الاختلاف في المذاهب، فلا سني وشيعي، ولا شافعي وحنفي، فالكل مسلم. ثم التحرر من اليأس في الإصلاح، فهذه أمم كثيرة كالرومان واليونـان واليابان، استرجعت مجدها بعد تمام ضعفها، خصوصـا وأن الظواهر كلها تدل على أن الزمان قد استدار، وبدأت تظهـر أعراض الصحة على المسلمين، ومن أعظم الظواهر انعقـاد مثل هذه الجمعية ووضع برنامج المؤتمر، يتلخص في بحث موضع الداء في المسلمين وأعراضـه وجراثيمـه ودوائـه وكيفية استعماله، إلخ.

قال الرئيس: إن أوضح عرض مـن أعـراض مـرض المسلمين فتورهم، وهو فتور عام شامل لجميع المسلمين في جميع أقطار الأرض، لا يسلم منه إلا أفـراد شـذاذ، حتـى

لا يكاد يوجد إقليما متجاوران، أو ناحيتـان فـي إقلـيم، أو قريتان في ناحية، أو بيتان في قرية، أهل أحدهما مسـلمون وأهل الآخر غير مسلمين، إلا والمسلمون أقل من جيـرانهم نشاطًا وانتظاما، وأقل إتقانًا من نظرائهم في كل فن وصنعة - مع أن المسلمين في جميع الحواضر متميزون عن غيرهم من جيرانهم في المزايا الخلقيـة مثـل الأمانـة والشـجاعة والسخاء – حتى توهم كثير من الحكماء أن الإسلام والنظـام لا يجتمعان! فما هو السبب؟

وقد لفت نظره العضو الهندي إلى أنه مع تسليمه بما قال الرئيس، يود أن يستثني بعض حالات فيها المسلمون خير من جيرانهم، كبعض الوثنيين في الهند، والصابئة في العراق، فوافقه الرئيس وشكره على ملاحظته.

ثم أخذوا – بعد التسليم بوجود العرض – يبحثـون فـي الأسباب وذهبوا في ذلك كل مذهب، فالشامي رأى أن سـبب الفتور يرجع إلى ما أصاب المسلمين من عقيدة جبرية، فهذه العقيدة في القضاء والقدر على هذا النحو آلت إلى الزهد في الدنيا، والقناعة باليسير والكفاف من الرزق، وإماتة المطالبة النفسية كحب المجد والرياسة، والإقدام على عظائم الأمـور،

فأصبح المسلم كميت قبل أن يموت. والعقيدة بهـذا الشـكل مثبطة معطلة لا يرضاها عقل، ولم يأت بها شرع.

والمقدسي رأى السبب تحول نوع السياسة الإسلامية مـن ديمقراطية إلى استبدادية، فأفسدت العقول وأماتت الأخلاق.

ورد التونسي بأن بعض الأمم الأوربية محكومة بحكومـة استبدادية ولم يمنع ذلك من تقدمها، وإنما السبب في نظـره الأمراء المترفون الذين لم يرعوا للأمة حقوقها.

وقال الرومي: إن تحميل الأمراء التبعة كلها غير سـديد، فما هم إلا نفر قليل من الأمة. والسبب الحقيقي فـي نظـره فقدان المسلمين الحرية بجميع أنواعها: من حريـة التعلـيم، وحرية الخطابة، وحرية البحث العلمي، فبفقد الحريـة تفقـد الآمال، وتبطل الأعمال، وتموت النفوس، وتختـل القـوانين وتسأم الأمة حياتها فيستولي عليها الفتور.

ورأى التبريزي أن السبب ترك المسلمين أصـل الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاسترسل الأمراء في أهوائهم وشهواتهم، وعدمت المراقبة عليهم.

وقال الفاسي: إن السبب هو إهمال الناس الاهتمام بالدين، حتى لم يبقى له أثر إلا على أطراف الألسن، وأمراؤهم مثلهم

لا يتراءون بالدين إلا بقصد تمكين سلطانهم على البسطاء من الأمة، هذا إلى ظلمهم وجورهم. وقد كان المسلمون أعـزاء يوم توثقت بينهم الرابطة الدينية، فلما انحلت ضاعت الأخلاق ففتروا وخمدوا.

وأجاب المدني بأن فقد الرابطة الدينية والوحدة الخلقية لا يكفي سببا لهذا الفتور العام. وعنده أن السبب تدليس رجـال الدين وغلاة المتصوفين الذين لونـوا الـدين بلـون سـيئ فأضاعوه وأضاعوا أهله، وذلك أن العلماء العاملين أهل لكل تجلة واحترام، فلما حسدهم من لا يستحق هذه المنزلة سلكوا مسلك الزاهدين. ومن العادة أن يلجأ ضعيف المقـدرة إلـى التصوف كما يلجأ فاقد المجد إلى الكبر وقليـل المـال إلـى التظاهر بزينة اللباس والأثاث، فأفسد هؤلاء الدين بما أدخلوا فيه ما ليس منه، كالعلم اللدني[1]، وترتيب المقامات، ووراثة السر، والرهبنة، والتظاهر بالعفة، والتبرك بالآثار، والكرامة على ا ، والتصرف في القدر. فسحروا عقـول الجهـلاء،

---

(١) اللدني: أي الذي يكون من لدن ا ، يلقى في النفس دون تعلم أي تلقين.

واختلبوا قلوب الضعفاء كالنساء، والنساء بذرن هذه البذور الضارة في أبنائهن وبناتهن، فماتت النفوس وخرفت العقول. وهؤلاء المدلسون وجدوا في بغداد ومصر والشام وغمروا السوق في الآستانة، وسرى التدليس من هذه العواصم إلى جميع الآفاق فأصبح المرض عاما.

وانضم الرومي إلى هذا الرأي وزاده إيضاحا، فقال: إن داءنا الدفين دخول ديننا تحت ولاية العلماء الرسميين والجهال المتعممين، وبلغ أمرهم في البلاد العثمانية أن صارت الألقاب العلمية منحة رسمية تعطى للجهال، حتى للأميين والأطفال (كمشيخة الطرق عندنا). فقد يكون طفلاً ويمنح بالوراثة لقب "أعلم العلماء المحققين"، ثم "أفضل الفضلاء المدققين"، ثم، وثم... حتى يوصف بأنه "أعلم العلماء المتبحرين، وأفضل الفضلاء المتورعين، وينبوع الفضل واليقين"، وأكثرهم لا يحسنون حتى قراءة ألقابهم. وطبيعي أن هؤلاء يقابلون السلطان بالمثل، فهو صاحب العظمة والإجلال، المنزه عن النظير والمثال، مهبط الإلهامات، مصدر الكرامات، سلطان السلاطين، مالك رقاب العالمين.

وأصبح التدريس والإرشاد والوعظ والخطابة والإمامة وسائر الخدم الدينية سلعا تباع وتشترى، وتوهب وتورث. وتسلط هؤلاء المتعممون على المجالس والإرادات، واتخذ الأمراء من ذلك وسيلة يتعذرون بها عند الدولة الأجنبية بأن الرأي العام – وعلى رأسه المعممون لا يقبلون الإصلاح المدني.

أجاب الكردي بأن هذا الداء خاص ببعض الولايات: ولكن عرض الفتور عام في الولايات الإسلامية التي فيها هذا الشأن وغيره، فلا بد أن يكون السبب شيئًا أعم من ذلك. وعندي أن السبب هو أن المسلمين أصيبوا باقتصارهم على العلوم الدينية وإهمالهم العلوم الدنيوية، كالرياضة والطبيعة والكيمياء، على حين أن هذه العلوم نمت في الغرب وترقت وظهر لها ثمرات عظيمة في جميع الشئون المادية والأدبية، حتى صارت عندهم كالشمس، لا حياة لهم إلا بنورها، وأصبح المسلمون في أشد الحاجة إليها في جميع أمورهم: من تربية الطفل إلى سياسة الدولة. ومن عمل الإبرة إلى عمل المدافع والبوارج. ومن استخدام اليد إلى استخدام الأسلاك والبخار – فابتعاد المسلمين إلى الآن عن هذه العلوم

النافعة الحيوية. جعلهم أحط من غيرهم من الأمـم. وكلمـا تمادت الأيام بعدت النسبة بينهم وبين جيرانهم.

أجاب الإسكندري: إن هذا يصلح سببا، ولكن لـيس كـل السبب، لأن فقد العلوم لا يصلح سببا لفقد الإحساس الشريف والأخلاق العالية، وإنما السبب نومنا ويأسنا.

قال التتري: إن هذا شكاية حال لا شرح أسـباب، إنمـا السبب عندي فقدان القادة والزعماء، فلا أمير حازم يسـوق الأمة طوعا أو كرها إلى الرشاد، ولا زعيم مخاص تنقاد له الأمراء والناس، ولا رأي عام يجمع الناس علـى غـرض نبيل.

والأفغاني يرى أن سبب الفتور الفقر، وهو قائد كل شـر، ورائد كل فساد، فمنه الجهل، ومنه الانحطاط الخلقي، ومنـه تتشتت الآراء حتى في الدين، فليس ينقصنا عن الأمم الحيـة إلا القوة المالية، ولكن المال لا يـأتي إلا بـالعلوم والفنـون العالية، وهذه لا تنتشر في الأمة إلا بالمال، وبهـذا تحـدث مشكلة الدور، ويجب أن تبحث عن حلها.

أجاب المسلم الإنجليزي: إن الفقر في المملكة الإسـلامية ليس طبيعيا، فهي بلاد غنية، لو نفذت تعاليم الإسلام فيها من

تحصيل الزكاة والكفارات وما إلى ذلك وصرفت في وجوهها لخفت وطأة الفقر، وإنما سبب الفتـور فـي نظـره وفقـد الاجتماعات والمفاوضات وتبادل الآراء فنسـى المسـلمون حكمة تشريع الجمعة والجماعات والحج، وصارت الخطـب التي تلقى تافهة لا قيمة لها، وكان الغرض منها التحدث فـي الأحوال الطارئة. وبلغ من سوء رأيهم أنهم عدوا التحدث في الأمور العامة فضولا، والكلام فيها في المساجد لغوا، فلمـا انعدم الكلام في المصالح العامة أصبح كل شخص لا يهتم إلا بنفسه، ولا اهتمام له بالصالح العـام ولا بغيـر ذلـك مـن الشئون، حتى لو بلغهم خبر تخريب الكعبة – لا قـدر ا – ما زادوا على أن يقطبوا جبينهم لحظة وينتهي الأمر. والأمم الحية في الوقت الحاضر تهيئ الفرص للاجتماعات ومبادلـة الآراء ما أمكن، بكثـرة النـوادي والمجتمعـات، وتنظـيم الرحلات والسياحات، وكثرة الخطب والمحاضرات حتى في المتنزهات، وعقد المؤتمرات للمناسبات، وتذكيرهم بتاريخهم وأهم أحداثهم، وبثهم في الأغاني والأناشيد ما يبعـث علـى حب البلاد والحرية ويحمس للخير العام.

ورأى الصيني أن السبب هو تكبر الأمراء وميلهم للعلماء المتملقين المنافقين، الذين يتصاغرون لديهم، ويتذللون لهـم، ويحرفون أحكام الدين ليوفقوها على أهوائهم، فماذا يرجـى من علماء دين يسترون بدينهم دنياهم، ويقبلون يـد الأميـر لتقبل العامة أيديهم، ويحقرون أنفسهم للعظماء ليتعاظموا على ألوف من الضعفاء، فأفضل الجهاد عند ا الحط مـن قـدر العلماء المنافقين عند العامة وتحويل وجهتهم لاحترام العلماء العاملين. وعندنا في الصين رجال حكماء نبلاء لهم نوع من السيادة حتى على العلماء، وهؤلاء هم الـذين يسـمون فـي الإسلام أهل الحل والعقد وهم خواص الطبقة العليا في الأمة الذين أمر ا نبيه بمشاورتهم، وتاريخ المسلمين يدل علـى ارتباط القوة والضعف بمنزلة أهل الحل والعقد فـي الأمـة. والخلاصة أن سبب الفتور استحكام الاستبداد في الأمـراء، وانعدام أهل الحل والعقد من الأمة.

وقال النجدي: إن سبب فتور المسلمين الـدين الحاضـر نفسه، بدليل التلازم، فالدين الحاضر ليس ديـن السـلف: إن الدين الحاضر ترك إعداد القوة بالعلم والمال والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، وإيتاء الزكاة

إلى غير ذلك مما بينه إخواننا. قد يقول قائل: إن كان دين دخل عليه التغيير ولم يؤثر في أهله الفتور، بل قال كثير من رجال الغرب إنهم ما أخذوا في الترقي إلا بعد فصلهم الدين عن شئون الحياة الدنيا. والجواب أن كل أمة لا بد لها من نظام ثابت تسير عليه، ويلائم نفسها وبيئتها وعلاقاتها التجارية والسياسة، والقانون الطبيعي الذي يتفق والطبيعة البشرية هو إذعان الإنسان لقوة غالبة هي ا الذي يوحي به الإلهام الفطري، ولهذه الفطرة علاقة عظمى بتنظيم شئون حياته، وهي أقوى وأفضل وازع – وكل الأديان راجعة إلى أصل صحيح واحد، فإذا تغير أو فسد؛ فسد الناس لاختلال هذا الوازع، قال تعالى: "ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا"، "والأمة كلما قربت من الأصل الصحيح والمبادئ الصحيحة قربت من الكمال".

وهنا أعلن الرئيس أن البحث في أعراض الداء وأسبابه قد نضج أو كاد، فيكتفي فيه بهذا القدر، ويجب نقل البحث إلى موضوع آخر، قال: وكلمة أخينا النجدي تلهمنا الموضوع الآتي الذي نبحثه، وهو: ما هو الإسلام الصحيح؟

- ٥ -

بعد هذا انتقل بحث المؤتمر إلى تحديد "الإسلام الصحيح" وما دخل عليه من تغيير، وقد أفاض في ذلك العضو النجدي، فقال: إن الإيمان با أمر فطري في البشر، وحاجتهم إلى الرسل لإرشادهم إلى كيفية الإيمان، ويختلف الناس في تصور ا ، والعقول البشرية مهما قويت واتسعت لا تتحمل إدراك صفات ا الأزلية المجردة عن المادة والزمان والمكان، فاحتاجت إلى من يرشدها".

وأساس الإسلام جملتان: "لا إله إلا ا " و"محمد رسول ا "، وثمرة الإيمان بالأولى عتق العقول من الأسر، وثمرة الثانية الاهتداء بمحمد في تعاليمه التي تحول بين المرء ونزوعه إلى الشرك.

ولكن إدراك التوحيد والاحتفاظ به عسير على النفس، فسرعان ما يخرج منه إلى الشرك. والشرك أنواع ثلاثة "شرك في الذات" وذلك في عقيدة الحلول، و" شرك في الملك" كاعتقاد الناس في بعض المخلوقات المشاركة في تدبير شئون

الكون، و"شرك في الصفات" بإسباغ صفات الكمال على بعض المخلوقات.

وقد فشا في المسلمين هذا الشرك، كتعظيم القبور، وبناء المساجد والمشاهد عليها، والطواف بها والإسراج لها [(١)] والتذلل، وكدعوى أن هناك علما علم الباطن خص به بعض الناس، واتخاذ الدين لهوا ولعبا بالتغني والرقص، ولبس الأخضر والأحمر، واستخدام الجن والشياطين، فكل هذه وأمثالها شرك محض أو مظنة إشراك.

وعرض للإسلام – غير الشرك – أمران خطيران: وهما التشدد في الدين بعد ما كان يسرا سهلاً، فكانت كل فرقة تأتي تزيد في هذا التشدد حتى صار عسرا صعبا، والأمر الثاني تشويش الدين بكثرة المذاهب والشيع وطرق التصوف.

وقد لاحظ الرئيس أن عضوين من الأعضاء لم يتحدثا، فرغب أن يسمع صوتهما، وهم العضو السندي والعضو القازاني، فأما السندي فقد تكلم في التصوف والذي دعا إليه، وما فيه من حق وما فيه من باطل، وأما القازاني فقص

---

(١) الإسراج: إيقاد السراج، وهو المصباح.

عليهم قصة جرت بين مسيحي روسي أسلم ومفتي قـازان، تدور حول دعوة المفتي إلى تقليد السلف والاقتصار على ما قالوا، ودعوة الروسي المسلم إلى ضرورة الاجتهـاد وعـدم التقليد، وحكى ما جرى بينهما من حجـج وأدلـة، وأخيـرا انتصر المسلم الروسي المستشرق على المفتي، فاقتنع بـأن التقليد ضار حمل عليه الكسل، وأن الاجتهاد واجب، ولكـن يحتاج القيام به إلى جد وعناء.

ثم دعا الرئيس السيد الفراتي السكرتير، وهو "الكـواكبي" لتلخيص المحاضر السابقة للمؤتمر وتعـداد أسـباب فتـور المسلمين،وكلفه أن يزيد عليها من الأسباب ما يراه إن وجـد غير ما ذكره الأعضاء، فلخص أسباب فتور المسلمين في:

١- أسباب دينية: أهمها عقيدة الجبر، ونشر ما يدعو إلى التزهيد في الدنيا، وترك السعي والعمل، واختلاف المسلمين فرقًا وشيعا، وإضـاعة سـماحة الـدين، وتشـديد الفقهـاء المتأخرين، وإدخالهم في تعاليمه الخرافات والأوهام، وعـدم المطابقة بين القول والعمل في الدين، وتهوين غلالة الصوفية شأن الدين وجعله لهوا ولعبا، والتوسع في تأويل النصوص، والتحايل على التحرر من الواجبات، وإيهام الدجالين النـاس

أن في الدين أمورا سرية، واعتقاد منافاة العلـوم الحكميـة والعقلية للدين، وتطرق الشرك إلى عقيدة التوحيد، وتهـاون العلماء في تأييدها، والغفلة عن حكمـة الجماعـة والجمعـة والحج.

٢- وأسباب سياسية: أهمهـا السياسـة الخاليـة مـن المسئولية، وحرمان الأمة حرية القـول والعمـل، وفقـدانها الأمن والأمل وفقد العدل والتساوي في الحقوق بين طبقـات الأمة وميل الأمراء للعلماء المدلسين، واعتبار العلم صـدقة يحسن بها الأمراء علـى الخاصـة، وإبعـادهم للناصـحين وتقريبهم للمتملقين.

٣- وأسباب خلقية: من الاستغراق في الجهل والارتياح إليه، واستيلاء اليأس على النفوس، والإخلاد [1] إلى الخمول، وفساد التعليم، وفساد النظام المالي، وإهمال طلـب الحقـوق العامة جنبا، وتفضيل الوظائف على الصنائع، والتباعد عـن المداولات في الشئون العامة.

---

(١) الإخلاد: الركون.

وقد زاد السكرتير أشياء على ما سبق، أهمها: الغفلة عن تنظيم شئون الحياة، وعدم توزيع الأعمال توزيعـا عـادلاً، وعدم العناية بتعليم النساء وتهذيبهن وانتشار داء التواكل.

ولم يرض المؤتمر بالاكتفـاء بالبحـث فـي الأمـراض وعلاجها، بل اقترح إنشاء جمعية دائمـة تعنـي بإصـلاح المسلمين، ويشرف على تنفيذ برنامجها في الإصلاح وهـذه الجمعية تؤلف من مائة عضو: عشـرة عـاملين، وعشـرة مستشارين، وثمانين فخريين ولا عدد للأعضاء المسـاعدين المحتسبين، واشترط في الأعضاء العاملين شروطًا دقيقة: من العفة والأمانة والإخلاص وسعة العلم والقدرة على التـأثير وإمكان التفرغ للعمل لأغراض المؤتمر، وجعل مركزها في مكة، ولها شعب في الآستانة ومصر وعدن والشام وطهران وتفليس وكابل وكلكتا وسنغافورة وتونس ومراكش وغيرها. والجمعية لا تكون تابعة لحكومة ما، ولا تتقيد بمذهب دينـي خاص، ويكون شعارها: "لا نعبد إلا ا "، ويكون مـن أهـم أغراضها تعميم التعليم بين المسلمين، والترغيب في العلـوم والفنون النافعة، وإيجاد المدارس العالية يتخصص كل منهـا للتوسع في فرع من فروع العلم، وتوحيد أصـول التعلـيم،

ووضع مناهج للرقي بالأخلاق وتنفيذها، وإنشاء مجلة شهرية للجمعية لتأييد أغراضها إلخ إلخ.

وقد اتفقوا على أن يكون مركز الجمعيـة المؤقـت هـو مصر، لتقدمها في العلم والحريـة، ولأنهـا أسـبق الأمـم الإسلامية في ذلك.

وانفض المؤتمر بعد أن اجتمع اثني عشر اجتماعا وصل فيها إلى النتائج الآتية:

١- المسلمون في حالة فتور عام.

٢- يجب تدارك هذا الفتور.

٣- جرثومة الداء الجهل.

٤- الدواء تنوير الأفكار بالتعليم، وإيقاظ الشوق للترقـي، وخصوصا في الناشئة.

٥- تأسيس الجمعيات التي تقوم بهذا العلاج.

٦- المكلفون بذلك كل قادر على عمل، وخاصة نجبـاء الأمة من السراة والعلماء.

هذه نظرة الطائر إلى هذه الرواية العظيمة العميقة المفيدة، وهذا تفكير "الكواكبي" من نحو نصف قرن يشف عن سـعة

اطلاع، وصدق إخلاص، وسمو فكر، وبعد نظر، وشـجاعة وصراحة، فإذا نحن اطلعنا على ما كان يكتـب قبلـه فـي المجلات والصحف في مثل هذه الموضوعات رأيناها كانـت أقرب إلى موضوعات إنشائية جوفاء، فنقلها هو إلى بحـوث علمية، عملية، يحلل ويذكر العرض وسبب الداء وعلاجه في صبر وأناة واستقصاء.

كتاب "أم القرى" رواية جدية ليس فيها غرام وغزل، بـل فيها غرام مؤلفه بالعالم الإسلامي، يعاني في سبيله ما يعاني المحب الهائم، ويود من صميم قلبه أن يصل محبوبـه إلـى أعلى درجات الكمال، ويضحي من أجله بماله الذي ضـيعه عليه الظلمة لتمسكه بالحق، ويضحي بوطنه فيهجره لأنه لـم يستطع أن يجهر برأيه في حلب فجهـر بـه فـي مصـر، ولا بأس فكل بلد إسلامي وطنه – كان يحـب التخصـص، وينادي بأن كل قادر يحصر نفسه في فرع من فروع العلـم أو الفن حتى يتقنه، وطبق ذلك على نفسه، فلم يتوزع بين فقه ولغة، وما إلى ذلك، إنما وهب نفسه لإصـلاح المسـلمين، فدرس التاريخ الإسلامي في دقة وإمعان في البلاد الإسلامية سياحة فاحصة منقبة، ودرس كل قطـر إسـلامي ومزايـاه

وعيوبه، حتى إنه لما وضع روايته "أم القرى" أنطـق كـل عضو بعقلية قطره: وسلطة المتعممين، والإسكندري يشـكو ضعف الأخلاق، والإنجليزي ينعي علـى المسـلمين عـدم المجتمعات وتبادل الرأي بالخطب والمحاضرات ونحو ذلك.

اكتوى السيد جمال الدين الأفغاني من السياسة الأوربيـة ولعبها بالمسلمين، فصب عليها جـام غضـبه، واسـتغرقت حملته على السياسة الإنجليزية أكبر قسم في العروة الـوثقى، واكتوى الكواكبي بالسياسة العثمانية فكانت موضع نقده. نظر الأفغاني إلى العوامل الخارجية للمسلمين فـدعاهم إلـى أن يناهضوها، ونظر الكواكبي إلـى المسـلمين فـدعاهم إلـى إصلاحها، فإنها إن صلحت لم تستطع السياسة الخارجيـة أن تلعب بهم، ولذلك كانت معالجة الأفغاني للمسـائل معالجـة تأثر، تخرج من فمه الأقوال نارا حامية، ومعالجة "الكوكبي" معالجة طبيب يفحص المرض في هدوء، ويكتب الدواء فـي أناة. الأفغاني غضوب، والكواكبي مشفق، الأفغاني داع إلـى السيف، والكواكبي داع إلى المدرسة. ولعل هذا يرجع أيضا إلى اختلاف المزاج، فالأفغاني حاد الـذكاء حـاد الطبـع، الكواكبي رزين الذكاء هادئ الطبع، إذا وضعت أمامهما عقبة

تخطاها "الأفغاني" قبل، وتخطاها "الكواكبي" بعد. ولكن مـن خير نقطة تتخطى، فلا عجب إن كان للأفغاني دوي المدافع، وكان للكواكبي خرير الماء يعمل فـي بـطء حتـى يفتـت الصخر!.

لو مكن له معرفة لغة أجنبية ووقف على ما وصلت إليـه بحوث علم الاجتماع الحديث لكان له منبع فياض إلى جانـب غزارة فكره.

وبينما الناس يعجبون بما ينشر من مقالات إصلاحية فـي المجلات والجرائد، ومجالس الفضلاء فـي مصـر عـامرة بحديثه وجدله ودفاعه المؤدب عـن آرائـه، إذا بالصـحف المصرية تطلع بنبأ موته الفجائي يوم ٦ من ربيع الأول سنة ١٣٢٠، فأسف عليه كل من كان محبا لإصلاح المسـلمين، وبكاه إخوانه الذين كانوا يرون فيه رجلاً نبيل الخلق، سامي المقصد، عفي اللسان، نقي الضمير.

فرحمه ا !

تخطاها "الأفغاني" قبل، وتخطاها "الكواكبي" بعد. ولكن مـن خير نقطة تتخطى، فلا عجب إن كان للأفغاني دوي المدافع، وكان للكواكبي خرير الماء يعمل فـي بـطء حتـى يفتـت الصخر!.

لو مكن له معرفة لغة أجنبية ووقف على ما وصلت إليـه بحوث علم الاجتماع الحديث لكان له منبع فياض إلى جانـب غزارة فكره.

وبينما الناس يعجبون بما ينشر من مقالات إصلاحية فـي المجلات والجرائد، ومجالس الفضلاء فـي مصـر عـامرة بحديثه وجدله ودفاعه المؤدب عـن آرائـه، إذا بالصـحف المصرية تطلع بنبأ موته الفجائي يوم ٦ من ربيع الأول سنة ١٣٢٠، فأسف عليه كل من كان محبا لإصلاح المسـلمين، وبكاه إخوانه الذين كانوا يرون فيه رجلاً نبيل الخلق، سامي المقصد، عفي اللسان، نقي الضمير.

فرحمه ا !